سعد مكاوي

الرجل والطريق

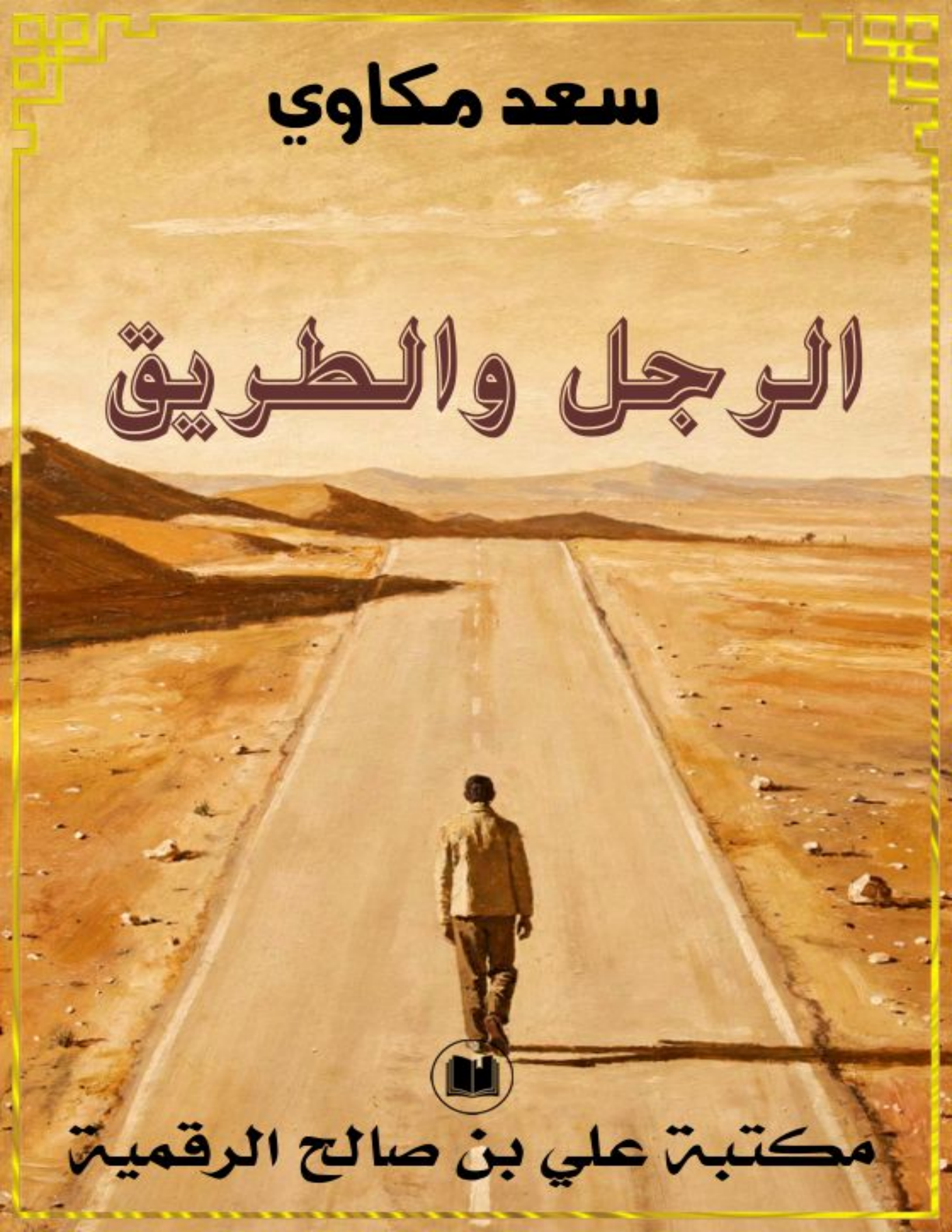

مكتبة علي بن صالح الرقمية

سعد مكاوي

الرجل والطريق

رواية

1964

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

الفصل الأول

مات البغل.. مات وها أنا جالس في مأتمه الذي اهتز له المركز كله، ولن يرى أحد بعد اليوم كرشه الذي لم أفهم أبدا كيف يمشي به إنسان بين الناس دون أن يستشعر الخزي من دمامته المندلقة، مات ومات الزمن الواحد العجيب الذي جمعنا، والذي هضم وجودنا أنا وهو، وهضم أيضا الضرورة التي لا مفر منها والتي واجهها كل منا، ضرورة أن يكرهني وأحتقره!

مزقته في خواطري المكبوتة وفي لوحاتي المجهولة التي رسمته فيها بغلا وذئبا ودودة، وحاول هو دائما أن يمزقني بلسانه في مجالسه، أو يحرجني باستعلائه المتعجرف في المناسبات القليلة التي جمعتنا مرغمين لتهنئة أو عزاء، في هذا الريف الذي لابد أن تلتقي فيه الوجوه...

مات فأعصابي في ذروة توترها وأنا مطرق وسط الناس في السرادق الكبير وهدير صوت رنان ينصب في أسماعنا من دكة المقرئ، ونواح خادمة في شرفة البيت المطلة على السرادق يفعم نفسي بإحساس مركب من الضياع والعبث والأسى وشبهة خفيفة من شماتة غير كريمة...

لقد جاء مقتله وأنا مستوحد حديث الصدمة باختفاء أليفة المائدة والفراش، أعبر فترة دقيقة من حالة الاضطراب النفسي التي أعيش فيها والتي أشبه عندما تشتد بي أزمتها، سفينا حائرا في بحر بلا شطآن. لا يعرف ملاحه النوم إلا فلتات مخطوفة، ففي الحال تقمصت شخصية القاتل المجهول ولبستني مشاعره وانفعالاته، وصارت قفزات مخيلتي تتقنع بقناع الحقائق، فطالما ضقت بهارون هذا وعاديت في سريرتي طرازه الشره، إلى حد أن عقلي الباطن كان أحيانا يفكر في القتل!

وأنا بالبداهة لا أقتل إلا في هواجس خواطري الشريرة، أما هو فما كان ليتورع عن قتلي لو أني كنت في نظره عدوا مرهوب الجانب حقا.. ولو أن ذلك وقع، لو أنه قتلني بيد أعوانه من محترفي القتل، لما كنت أول قتلاه ولا آخرهم!

وكنت أعلم أنه يدعوني «المخبول» وكان يعرف أن اسمه على لساني هو «البغل»!

كانت حياته تقرفني، وكل ما في شخصه يبتلي معدتي بتشنج الغثيان، لحمه الجم، ورقبته الحيوانية، وأخبار أطماعه ومباذله، وأرضه الواسعة التي تنتشر فيها إرادته الباغية الشرهة، والعصابة التي بها يبطش بمن يشاء في غلظة والتلذذ بالجريمة، والتي سمعت أنه جلب بعض أفرادها من البحيرة والصعيد، وطريقته المشهورة في أكل الوزة على ريق النوم،

وصوته العالي في الكلام، وثعبانيته في التعامل مع الفلاحين، كل ما فيه كنت أحتقره من بعيد كما لو كنت في كوكب آخر، وأسجل احتقاري في لوحاتي المكدسة في أركان بيتي، في أقصى الناحية الأخرى من البلدة... حتى زوجته جليلة كنت أمقتها وأصورها في لوحاتي بطة سمينة برأس خنزير وذيل كلب، منذ التقينا في القطار وفتحت لها النافذة التي استعصت عليها فذهبت تقول لبغلها إني أردت أن أغازلها!

كنت أصغره بأكثر من عشر سنين، لكني في الأربعين من عمري وقعت في أزمة باطنية عميقة، عندما ارتطم الإنسان الحقيقي الذي في قلبي بالواقع الموجع من حولي، شيء كالصدع في جدار النفس...

كانت حياتي دائما صادقة والخلاف بين باطني وظاهري قليل، وكانت ركائز هذه الحياة هي أعمدة الإيمان بأن القلب البشري الذي لا يزال في نقائه طفلا هو جوهرة الوجود الحقيقية، وأن الإنسان الإلهي الذي بداخلنا هو هدف كل جهد في الوجود الإنساني بل هو المصلحة الإنسانية العليا، فليس في وجودنا كله قيمة تعلو هذه القيمة، ولا حق في احترامي لمن لا يذله ويعذبه أن لا يكون الإنسان إنسانا حقا، ولمن يسري الطين تنبت فيه بذرة الوردة الحسناء فلا يخجله ألا يكون قلب الإنسان مستودع جمال ومستنبت خير...

ولما كنت في صميمي فلاحا، أي إنسانا مرتبطا بالأرض من جهة ومنسجم الوجود مع الكون من جهة أخرى، فإنى عرفت في الهواية الفنية التي أتاحتها لي فرصة الثقافة، كيف يغوص إحساسي الباطن في أعماق الأشخاص والأشياء، وكيف أصيد اللمحات الإنسانية الدقيقة كما أفهم عطر السماء ورائحة التربة، وبنفس الصدق الذي أسجل به المؤثرات الضوئية المرهفة... ولما كنت عندما أرسم لوحاتي لا أنوي ولا أرجو أن يشتري أحد عملي، فقد كشفت لي الطبيعة بارتياح عن خصائصها وصار في وسعي في معظم الأحيان أن أحسر الستر عن بعض سر الأشياء الحميم، عن روح كونية، إذ إن كله كان في الحقيقة شيئا مرتسما في مرآتي الداخلية وحيًا فيها...

ولم تكن لي أبدا قضية خاصة، وكان لي من الدخل المعتدل والثقافة المتوازنة ما لم يتح للكثيرين جدا من أمثالي أبناء الريف، ومع ذلك كان يحدث لي في بعض الليالي المقمرة، وهي أعيادي الحقيقية في الريف الذي يحتويني، أن أسمع في أعماق الحقيقة حافز الوجدان الصادق ينادي: «كفاك استرخاء واصلب عودك وأقدم على عمل... تحرك!»

وفي دوامة هذه الأزمة المرهقة ماتت زوجتي بعد عشرة أشهر من قراننا، وبموتها مات الجنين الذي جاهدت يومين قبل موتها لتهبه الحياة قبل أن تودعها، ففشلت وانتهى بفشلها أجلها، ماتت في فجأة مذهلة، وإنه لشيء موجع حقا أن يموت إنسان!.... من الطبيعي أن يتساءل المرء في لحظة موت عزيز عليه، ماذا كانت جدوى أن يولد هذا الإنسان وتبلوه الحياة مادامت هذه هي دائما النهاية....

نزلت قبلها إلى قبرها مع الحانوتي وركعت فيه وتأملته في استيعاب، ثم سوت يداي الرمل الرطب الذي يكسو أرضه قبل أن تتلقيا مع يدي الحانوتي المحترف ذلك الجسم

الغض المحجوب بالكفن، فوسدناه الأرض وتركناه وخرجنا...

كانت عزيزة على نفسي مع أنها لم تكن شيئا كبيرا في حياتي، إذ لم يكن بيننا من رابطة الفكر شيء أذكره، وكانت خيمتنا مفتوحة للرياح من كل صوب وكان الجنس في قصتنا القصيرة هو وتد الخيمة...

إن الألفة تنسج حول حياة أي زوج من الناس خيوطها العجيبة السرية، والعادة تعمل في صمت عمل العنكبوت المستخفي في نسج شبكته، وليس لزاما أن يكون الرجل عاشقا لزوجته حتى يفتقدها بعد موتها، فإن للوسادة الواحدة سرها الأزلي.... كانت هنا ولم تعد موجودة... لا صوتها ولا جسمها.. لقد قام زواجنا على غلطة هي التي أدفع الآن ثمنها، إذ لم يكن لروحها وزن في صلتنا... كانت مديرة البيت والطباخة والعشيقة ولا شيء بعد هذا... والفراش وحده تقريبا كان مكان التقائنا الحقيقي.... لم تنجذب لي ولم أنجذب إليها ولم تبذل في فهمي أي جهد ولا حاولت أن تتعرف على وجداني وتأملاتي، أو تطيل النظر في لوحاتي أو أن تكون هي اليد التي تنفض عنها غبار النسيان في أركانها المعتمة... لم تكن روحي هي التي تهفو إليها بعد موتها، بل يدي المتحسسة طريقها إلى البحث حيث كان جسمها ينتظر طائعا في ظلمة المخدع... والرياح التي هبت على حياتي بموتها لم تقتلع خيمتي، وكل ما صرت أفتقده هو في الحقيقة وتد الخيمة....

وعندما استوحدت في بيتي بعد أن انحسرت عني موجات المعزين الثقيلة الوطأة على من لا يحسن الخوض في طقوسها، استولت عليّ في سكون الليل حالة من الرعب لا معنى لها، إذ تصورت فاطمة وهي تصحو في قبرها من غيبوبة طويلة خدعتنا بقناع الموت المهول، فتجد نفسها في ظلمة المحبس العجيب، وتصورتها وعشت معها في جنونها الفظيع وزئيرها المسترحم وكل شناعة ميتتها الثانية.. ذلك أن غانم الأخ الأصغر للشيخ عبدالرحيم كان أحد الذين أقبلوا في ذلك المساء ليجلسوا في فناء بيتي ويتخذوا مظهر الأسى بعد أن يقولوا لي «إن الله غفر ذنبي» ولا يريدون مني بعد هذا إلا أن أرد عليهم بقولي «إن الله شكر سعيكم» وأن أكون كذلك حسن الذوق في انتقاء المقرئ الذي سيحيي الليلة الساهرة وفي اختيار حلاوة صوته... ووجه غانم الموسوم بالرعب والذهول أتاني في تلك الليلة بوجه أخيه عبدالرحيم وأيقظ في نفسي أعاصير مأساته الهائلة....

كان رجلا طيبا من الطراز الإنساني الجميل الذي تشغى به القرى كالذخر المكنوز لغد بشري بعيد، وكان الأخ الأكبر لقبيلة من الفلاحين الفقراء على رأسها غانم وحفيظة وعبد العال وقد مات فجأة وقال طبيب المركز الذي فحص جثته وصرح بدفنها إن سبب الوفاة هو سكتة قلبية، ومرت سنتان قبل أن تفتح أسرته القبر الذي يضم رفاته وعظام سلالته، كي تدفن ميتا جديدا هو شقيقه عبد العال الذي دهسته سيارة نقل في ضوء القمر على السكة الزراعية....

وما أن انكشفت فتحة القبر حتى تفجرت حلوق الناس بشهقات الرعب وانطلقت حفيظة تجري في الحقول التي تتوسطها الجبانة، مخبولة!..

رأوا في مواجهتهم ولصق فتحة القبر تماما هيكلا لا تزال مزق من كفنه تتدلى من عظامه، مقعيا ومشهرا في الوجوه عظام أصابعه النحيلة، وجمجمة مطلة....

وكانت ليلة عاشها بلدنا الصغير، ولا كل الليالي، فلقد بعث الشيخ عبد الرحيم في قبره حيا ولقد مات ميتة ثانية بشعة وهو ينبش سد القبر المفزع بأظافره وينادي الناس والله في جنون....

وظل أهل البلد يذكرون هذا الحادث الفذ دون أن يخطر لهم أنه كاد يسلمني إلى الجنون.... لم تكن لي في ذلك العهد زوجة وكنت أعيش وحدي في بيتي الكبير الذي يحتويني مع الليل ويستر قلقي ويشهد محاولاتي المضنية للاستغراق في الرسم أو كتابة يومياتي أو الاستماع إلى اسطوانات الموسيقى، لكنني أجدني دائما في النهاية داخل قبر عبد الرحيم...

وكنت أشعر وأنا أدمن هذا الانجذاب الروحي الشديد إلى مأساة الرجل المسكين بثورة عنيفة على نفسي وبالخجل منها، وأعترف في وحدتي ـ وفي كراسة اليوميات ـ بأن شخصيتي التي طحنتها معاناة الانطواء قد شحبت حتى ليسيطر عليها كل عابر سبيل من الأحداث أو الشخصيات، ومازلت أذكر الشحاذ الأعرج الصفيق الذي ظهر ذات صباح على جسر الترعة أمام بابي ورفض الصدقة إلا من يدي، هذا الأفاق الذي لم أسأله حتى عن اسمه، وأذكر جلستي معه تحت شجرة التوت التي تظلل ركنا طيب الهواء من مسافة الجسر الضيقة بين الباب والترعة، وكيف فتنتني صفاقته وظلت نفسي أسيرة لها أياما طويلة بعد اختفائه....

تقمصته تماما وحللت فيه وصرت أبدع في الخيال مواقف لي تبز صفاقتى فيها صفاقته، ولكم طفت بالقرى مرتديا أسماله وصائحا في البلاد صيحته التي تعلن على الأبواب أنه أقبل ليأخذ حق الله.... ولقد مر زمن قبل أن أعود من التأفق والتسول إلى الرسم وإلى العناية بأشجار المنجة والبرتقال التي أعيش من دخلها، وأنفض عن كاهلي ذلك الشيطان الذي ركبني....

لكن جذبة عبد الرحيم لي إلى قلب القبر كانت أعتى، وصار يبلغ من استغراقي في مأساته الفظيعة أن أكون بتمام مشاعري. عبد الرحيم التعس هذا منذ صحا من غيبوبته وعرف مكانه ونبش سده حتى تنفست شهقته الأخيرة الموجعة آخر نسمة أكسجين في هواء القبر ومات ميتته الكبرى وأصابعه الدامية مغروسة في الجدار الأسود، لا الناس أغاثوه ولا الله استجاب لضراعاته المجنونة في بطن الظلمة...

كنت كل ليلة أنا عبد الرحيم وعبد الرحيم أنا، وكل ليلة كنت أصحو من ميتتي الكاذبة فيذهلني هذا الغطاء الناعم المربوط حولي في هذا الظلام الذي تفوح منه رائحة زخمة غريبة، ويرتج قلبي في حال يقظتي رجة موجعة لا أدري مأتاها، وتفك يداي المرتعدتان أربطة غطائي العجيب، لكن رأسي أثناء حركته العنيفة يتلقى صدمة أليمة من سقف غير منظور، والجدران متقاربة، جدار مظلم يصد جدارا مظلما والسقف خفيض

يجبرني على الركوع، ويا لهول صرخة الإدراك والروع التي أطلقتها مجلجلة متجاوبة الأصداء في ذلك المحبس الأسود الرهيب الذي فهمت الآن أنه القبر!... أنا حي في القبر!... يا عبد العال أنا حي!... يا غانم!... أنا حي يا أمي!... يا أمي!... يا ناس!... يارب!... يارب!..... وجننت ليلة بعد ليلة وتفصد العرق من جسمي وأنا أجأر في طلب النجدة من السماء ومن الأرض، وأدق جدران القبر بقبضتين داميتين وأحطم أظافري في نبش المكان الرطب الذي فهمت يداي المتحسستان أنه موضع الفتحة التي سدها قومي منذ قليل قبل أن ينصرفوا إلى النور....

وفي هذا الجنون ضاعت من عمر الليل في حياتي ساعات طويلة مأسوف عليها، قبل أن أحمل حقيبة صغيرة في فجر إحدى الليالي المرعبة وأهرب من البلد إلى رأس البر....

أما الآن فهي فاطمة التي أجن معها في ظلمة القبر وأتضرع وأتقلب بين الرجاء واليأس ثم أموت عند الجدار أشنع ميتة، ولقد نزلت في قبرها عند دفنها ونقشت صورته في وجداني، فأنا خبير بالمسرح الذي يتم فوقه عذابي!..

وعندما سقط هارون على الأرض كالبغل المصروع في هذه الليلة الصيفية من سنة ١٩٤٧ وفي جسمه الرصاصتان اللتان سددهما إليه القاتل البارع أثناء عودته من عزبة صديقه المعلم جرجس، قامت قيامة المديرية وأقبل رجال النيابة والجنود والمأمور وكل الموكب الرسمي، على حين كنت أغوص إلى قبر هارون بالتذاذ لا يخرجني منه إلا غموض ذلك القاتل المجهول الذي يريد أن يلتحم بي، حتى لم يعد لوجودي كله هدف إلا الغوص في ذاته في محاولة جامعة بين اللذة والألم لاقتحام أغوار لغزه والاندماج به!

من يكون؟

ولماذا قتل لنا بغلنا!

هل كان البغل قد أصابه في ماله؟ في عرضه؟

من هو؟ من هو القاتل؟

البلد كله موضع اتهام؟

لم يكن له حبيب إلا النهازون المنتفعون بجاهه، فكان أيسر على الباحث أن يتساءل: «من لم يقتله؟»: من أن يسأل: «من قاتله؟».

هذا المجهول صار فتنتي ومشغلتي، ودائي المخيف أيضا، كما كان شأن المجهول من عذاب عبد الرحيم الأكيد أو من عذاب فاطمة الذي خلقته وصورته لأعيش فيه!

طريد النيابة، القاتل المطلق السراح الذي أسقط البغل في تراب الأرض وقدم بطنه المندلقة الدسمة للدود، هو الآن صاحبي الذي يسكن أعماقي ويتمدد فيها وينمو ويلتحم بذاتي الحقيقية المجهولة من كل إنسان... هو أنا؟!

وهأنا جالس في مأتم قتيلي!

وفجأة أتنبه لوجودي في السرادق فأدرك من منظر مقرئ آخر يسعى ببدانته البليدة إلى دكة التلاوة ليعتليها، أن الصوت الرنان قد ختم تلاوته منذ قليل وأن حركة الخروج والدخول وهرولة أقارب هارون وأعوانه قد دبت في المكان وملأته همسا مكتوما لا يحجب طنين الكلوبات ولا وسوسة فناجين القهوة في أيدي الفراشين المتقمطين في قفاطينهم وهم ينحنون أمام صفوف المعزين مقدمين قهوة يعلمون أن التقاليد تقضي برفضها.... كفى! كفى وجودا في مأتم البغل، الواجب عملناه، وصحوة القبر وعذاباتها تمنيناها له بإخلاص الخبير المجرب!....

لننفض اليد من هذا الزيف ولندخل في الحال على هارون قبره.. معا يا بغل، ولتستيقظ معي للجنون وللموت البطيء الفظيع، فأنت أهل له لا عبد الرحيم الإنسان ولا فاطمتي في ربيع شبابها!

واختلطت الأصوات وتداخلت مع صوت المقرئ: ﴿ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ...﴾

الست الكبيرة تطلب رؤيتك يا حسن بك قبل ظهر الغد وتسأل عن موعد وصولك.

لعل مثل هذه الكلمات ترددت في سمعي مرتين قبل أن يطفو وعيي الكامل ويلتقطها ويوجه نظرتي نحو الشخص الواقف وراء كتفي وهو منحن يصبها في أذني، وإنه لوجه لا تطيب لي رؤيته، فهو مصطفى كاتم سر الست جليلة الذي يقال إنه يبيع لها المحاصيل التي تسرقها من زوجها ويسافر بالمكاسب إلى أسرتها في طنطا، والذي تلف طرحتها حول خصره حزاما وتضرب له على الدف كلما حفزتها نزوة فيتهتك لها...

لماذا تطلب جليلة مقابلتي إثر مصرع زوجها؟

لماذا؟ لماذا أنا بالذات؟

إنني لم أقابلها غير مرة واحدة وليس بين دنياها وبيني أية صلة ممكنة، بل إنني لم أدخل بيت هارون في حياتي كلها مرة واحدة!

وفي قلبي تفتح خوف لذيذ، أحمق لكنه ممتع حقا، كأن في الوسع أن تقرأ هذه اللحيمة الغليظة فكري وتسبر غوري وتعرف أني ألبس ما وسعني جهد الاندماج شخصية قاتل زوجها المجهول وأعيش في نفسيته....

فكرة لا تخطر إلا على بال رجل مثلي ارتطم وجدانه المتفزز بمرارة الواقع، فانصدعت لهذا الارتطام نفسيته، لكنها جعلتني أنعم سلفا بلذة الليلة التي أعلم أني سأعيشها ساهرا مع هارون وأرملته لا يكاد يخرجني من استغراقي في «يقظته» الموجعة في قبره وعذابه البشع في ظلمته غير تصوري للقاء الغد مع أرملته التي لا أدري ماذا تريد مني، أنا البعيد عن دنياها مسافة نجم ناء في البعد السماوي لا يعلم سره غير الكون الذي يحتويه ويشمله... جليلة بنت نعيمة الآلاتية!!

غدا أدخل على اللغز حرمه، ولعلي هاتك ستره....

أما الليلة فانزل يا هارون إلى قبرك، انزل، إني معك!

الفصل الثاني

لابد لمن يسعى من بيتي إلى بيت أرملة هارون أن يخلف وراء ظهره سواقي الترعة، ويجتاز القرية الكبيرة كلها إلى طرفها الشرقي، فتحتويه الحقول المنبسطة حتى ليغدو فيها نقطة متحركة ضئيلة في عالم من خضرة فسيحة، ثم تسلمه الدروب الملتوية التي تحف بها أبواب الجحور الخفيضة إلى مساحات خضراء أخرى تترامى وراء السكة الزراعية، وتنتشر فيها بيوت متباعدة حسنة المظهر، ويظهر قرب حدها القبلي مثوى أجيالنا السابقة في صفوف من قبور، لا أدري كم من سكانها هبوا من مراقدهم بعد دفنهم ونفضوا أكفانهم وعانقوا الجنون قبل أن يهمدوا دون أن يدري بمأساتهم الأحياء الذين يدبون فوقهم، ثم ينتهي بالساعي المسير إلى بوابة كبيرة دميمة وفناء فسيح يكشف عن ذوق بدائي، تقبع في ركنه عربة الحنطور التي يلمع مصباحاها النحاسيان وجلدها الأخضر الزيتي، ما يكاد البصر يلمحها حتى يخيل للأذن أنها تسمع النغم الحاد في صلصلة جرسها، وكأن هارون يتخايل هنالك حيا على المقعد الجلدي متأهبا لشق طريقه بين الناس في عجرفة وتعاظم....

وصفقت بيدي مرتين قبل أن يظهر لي من يدخلني بيت الأرملة وكأني شحنة من الفضول المتوتر الذي أججته طوال الليل حاجة ملحة إلى اقتحام اللغز الغامض، هل كان لصا قاتل هارون أم منتقما لظلم أصابه في عرضه أو ماله، أم لعله لم يكن غير أخ لي ضاق وجوده الشريف الحساس بذلك الوجود المنحط الأناني المسعور فقضى عليه نزولا على حتمية المصير وحدها؟ وهل لي في هذه الدنيا أخ لا أدري به ولا يدري بي؟ هل نحن كثيرون؟

وأسلمني مصطفى في السلاملك إلى زوجته رئيفة الخدامة الخصوصية للست. فقادتني خلال صالة واسعة مفروشة بالسجاد والكتب إلى غرفة الاستقبال وفيها أريكتان وكراسي منجدة وسجادة ومرايا وأزهار صناعية وصورة وحيدة كبيرة لهارون بالعمة والجبة والمنشة والكرش..

جلست قبالة البغل في انتظار ظهور حرمه وقد صحت في نفسي ذكرى باهتة للقائنا القديم في قطار طنطا، عندما وجدتها «محتاسة» في نافذة الديوان ففتحتها لها وأنا أعرفها بنفسي وأحييها، ففقست الإشاعة في الحال وكدت أدفع حياتي ثمنا لحماقة هذه المرأة وسوء حكمها على الناس... يا بغل! إن لك امرأة لحيمة مثلك ترتج طيات لحمها داخل المعطف الواسع ويكاد الدم ينط من وجهها السمين، فما يقوى على حملها حقا إلا بغل مثلك!... وتأملت الصورة في التذاذ شامت وغاصت نظرتي في عيني الخنزير السمين النتن، في العينين

الخاويتين من أي وجود للكائن السامي الشريف الذي لا يكون الإنسان عندي بدونه إنسانا، عندما فتح الباب ودخلت الست جليلة....

ليت في الوسع أن أضعها على ميزان وأنظر في الرقم الهائل الذي يطالعني وأقسم به، وأنا أرفعه في يدي ككتاب المؤمن، أني لم يكن في نيتي أبدا أن أغازل هذا الطن من اللحم المتحرك الأبيض، وصافحتني وتقبلت تعزيتي في حزن متكلف وهمسات خافتة مدروسة، ثم انحطت فظهرت لي سمانتا ساقيها من تحت الفستان الأسود شديدتا البياض والارتجاج، وسادنا الصمت هنيهة فأتاح لي إطراقها خلالها وانكسار جفنيها أن أتأمل شخصها الكثيف ووجهها السوقي، وبي لهفة إلى ما عساها تقوله، في صبيحة اليوم الثاني من أيام المأتم الثلاثة المعهودة.

وعندما استقرت نظرتي على المنديل المطرز باللون الأسود في يدها الكبيرة الغليظة سمعتها تبدأ الكلام على مهل، قائلة آخر شيء كنت أتوقع أن أسمعه:

ـ ما اسم صديقك الطبيب الكبير في القاهرة؟

وارتفع الجفنان الثقيلان عن عينين واسعتين تبحثان عن عيني. وقبل أن أتكلم قالت في أسى:

ـ البنت حالتها لا تعجبني، وأنا خائفة عليها.

بدا لي هذا العذر الذي تعطلت به لاستدعائه على هذا النحو واهيا ومريبا واستولى علي الشك في أن مسألة الطبيب هي سبب المقابلة حقا، وسألتها: سلامتها؟

ـ تسلم!

فعدت أحاول الوصول إلى رد أوضح:

ـ مم تشكو الآنسة؟

ـ إنها بطبيعتها رقيقة الصحة، وقد صدمها بالطبع مصرع أبيها، فقد كانت تعبده.. وأنا أخاف عليها من نسمة الهواء!

«وأنت يا جليلة؟ أنت؟... هل كنت تعبدينه أنت أيضا؟ هل كنت تحترمينه وتحبينه، وهل كان حقا شيئا كبيرا في حياتك؟.. لا يبدو عليك أنك تستشعرين حزنا حقيقيا، ولا تتكلمين عنه ولا عن مقتله ولا عن ابنكما الغائب في بعثة في ألمانيا... هل من الحق ما تتناقله ألسنة الناس من أنك كنت تسرقينه؟ بل تخونينه كما يخونك؟ وهل من الحق أن ابنتكما إنما اعتلت صحتها منذ اليوم الذي دخلت فيه وهي صبية غضة إحدى حجرات البيت فوجدت أباها وإحدى الخادمات في وضع استبشعته طهارتها وارتجت منه أعصابها؟ لماذا لا تقولين كل ما عندك يا امرأة، وتعترفين وتتطهرين!... ما هي الحقيقة، هنا عندكم؟ في عالمكم هذا!... يا دهن! يا شحم! يا ريح العفن!...»

لكني قلت لها وأنا أقاوم خواطري الدفينة:

ـ الله يرحمه ويحسن إليه!

فركزت المرأة في عيني نظرة قوية وخيل إلى أن شبح ابتسامة مكبوتة يتوضح في أعماق حدقتيها العسليتين الكبيرتين، وقالت لي بصوت ناعم:

ـ إنك لم تكن تحبه، أليس كذلك؟

توترت نفسي، وألقمتها الرد من فوري في غير نعومة ولا إبطاء:

ـ هذا صحيح، لكني ـ إن كان هذا هو ما تبحثين عنه ـ لم أقتله، لا بيدي ولا بيد أجيرة!

وهنا وسعها أن تصرح بابتسامتها لتقتل بها في هذا الظن الذي تبادر إلى نفسي من سؤالها الغريب، وهتفت:

ـ كيف خطر لك هذا المعنى؟

ـ إنني أحب الخطوط المستقيمة الواضحة.

ـ إنه هو أيضا لم يكن يحبك، وكان عنده ما ليس عندك من الأيدي الأجيرة المذعنة، لكنه هو لم يقتلك!

ـ لأنه وجدني أرسم وأحلم وأنكمش ولم يجدني أتوسع مثله وأتفشى وأنتشر فترتطم حدودنا!

ـ المهم هو أنه لم يقتلك!

ـ هل الرد المطلوب مني هو أن أتقدم بالشكر إلى أهله؟... إن لم يكن قتلني فقد قتل غيري!

وتوقعت غضبا منكرا، لكنها تنهدت وهي تطرق، ثم قالت لي في هدوء:

ـ إن القتل يقع في الواقع عند تعارض المصالح، لا عند تعارض العواطف، لهذا لم يقتلك ولم تقتله!

وإذا بالسؤال يبزغ من أعماقي، وحده، دون قصد ولا نية:

ـ من قتله؟ اغفري لي هذا السؤال يا سيدتي، لكن ألست ملهوفة على معرفة القاتل وإيقاع العقاب به؟

فانشق جفناها عن النظرة القوية التي تجيد رشقها فجأة في عيني من تكلمه وأجابتني في نبرة عاتبة:

ـ التحقيق في يد الحكومة كما تعرف.

وساد صمت قصير، ثقيل حقا، قبل أن تسألني:

ـ هل أستطيع أن أعتمد عليك في إقناع الدكتور صديقك بزيارة البنت غدا؟

سأتصل به بالتليفون بمجرد عودتي إلى البيت.

ـ أعرف أن كبار الأطباء يفزعون من ضياع وقتهم في مشوار طويل كهذا، لكنني سأدفع له المبلغ الذي يطلبه، وأكثر منه!

ـ الدكتور شعبان صديقي، فهو إنسان لا يفكر في المال بقدر ما يفكر في واجبه!

ونهضت واقفا فمشت معي خطوات حتى تسلمني تابعها عند باب الحجرة ولابد أنه كان رابضا في الصالة ليسمع حديثنا كله ـ وقالت لي وهي تصافحني:

ـ سأنتظر خبرا منك عند حضورك في المساء إلى المأتم. ثم التفتت إلى تابعها:

ـ يا مصطفى.. لا تنس عند حضور حسن بك في المساء أن تعرف منه موعد وصول الدكتور شعبان وتخطرني به في الحال.

وكررت لها التعزية قبل انصرافي، أرملة البغل التي يرجع أهل ريفنا بطبعها الحامي إلى علمها بما يقال عن سيرة أمها، فإذا ذكروا حكاية الصيدلية المشهورة أو حادثتها القديمة معي في القطار، أثاروا ذكريات ماض بعيد وتكلموا عن نشأتها في طنطا، وكيف التقى بها هارونهم الألعبان وتزوجها هناك وجاء بها ليسلطنها في بيته وأرضه ويزهو بها على الناس... وهارون كان فظيعا في نزوات شبابه، وكانت لا تزال في قبضته أرض أبيه التي ورث نصفها واغتصب النصف الآخر من أختيه غير الشقيقتين، فكان يتصرف في تلك الأرض الواسعة تصرف الأمير الذي لاراد لحكمه، ويشتري الحشيش بالأوقية والويسكي بالصندوق، وينزو على نساء العاملين له في السر والعلن، وفي البيت والحقل، وحتى في الخلاء وفي نقحة الشمس دون خشية من عين كاشفة، ثم لا يكتم من غزواته النزقة تفصيلا مهما دق إلا رواه لعصبته في اجترار فخور، غير متكتم اسما ولا ساتر عرضا... وكان ميدان فسقه ينتقل إلى طنطا وشبين الكوم ودسوق في ليالي الموالد، حتى التقى في إحدى سهرات مولد السيد البدوي بمغن مليح الوجه والقوام قاده إلى بيت أمه نعيمة الآلاتية وأختيه ماجدة وجليلة فكانت الشبكة المحكمة التي لم تفلته لياليها الملاح إلا بالكوشة والزفة.. وبعد سنوات قليلة كانت هذه «العالمة» تفهم من أسرار الزراعة ودقائقها اللطيفة ما لا يفهمه فلاح عتيق... وتتاجر حتى في مش الجبن القديم وبيض البط وحمام البرج، وتسيطر على دنياها الجديدة باقتدار وقوة في اليد واللسان والعزيمة....

وهذه التي تخاف على وحيدتها من النسيم وتتخذني سفيرها عند طب القاهرة وتتراءى لي في صورة الأمومة الجميلة، هي التي يتناقل الناس أنها أثارت في ظهر يوم شتوي عاصفة في صيدلية المركز عندما وزنت نفسها بمساعدة الدكتور صبري الصيدلي وبحضور بعض الأعيان الذين ألفوا الاجتماع بعد مقابلة الحكام وقضاء الأشغال داخل الصيدلية النظيفة البيضاء وعلى رصيفيها، فقد ثارت عندما ذكر لها الصيدلي أن وزنها مائة وأربعون كيلو جراما وقالت له بصوتها العالي الذي سمعه المارة في ميدان المحطة:

ـ ميزانك خربان زي مخك!

فرد عليها الدكتور صبري بأدبه الخبيث:

ـ الميزان مضبوط يا هانم، ولعل نصف هذا الوزن هدوم! فما كان منها إلا أن طوحت بحقيبة يدها وحذائها ومعطفها واعتلت الميزان مرة أخرى وهي تسأل في تحد أحمق، ولا يخلو من نزعة استعراضية:

ـ والآن؟ ماذا يقول ميزانك المخرف؟

ونظر الصيدلي الأصلع في المؤشر المتأرجح قبل أن يقول لها بنفس الهدوء الأرقم:

ـ ١٣٤ كيلو يا هانم بالصلاة على النبي!

وعندها جاءت من الرصيف سعلة شيخ العرب حمدان، الذي يتردد على الصيدلية منذ أكثر من عشر سنوات باحثا عن أقراص مقوية:

ـ لازم الفستان أيضا ثقيل يا دكتور صبري يا ابني!

وما أن قالها حتى هبطت جليلة عن قرص الميزان الذي كانت تعتليه دون أن تلتفت إلى المعطف الذي امتدت لها به يد الصيدلي، وانحنت على الأرض عارضة على العيون عجيزتها الهائلة وما انكشف من بطني ساقيها، فاختطفت إحدى فردتي حذائها وأشهرت الكعب العالى وانقضت على موقع شيخ العرب من الرصيف، وأمام الجميع أخذ الشيخ حمدان يحمي رأسه بذراعيه وهو يتلوى تحت ضربات الكعب المنهالة على صدغيه وأنفه الكبير وقفاه المجمد وهو يجأر من الألم والخزي:

ـ العفو يا ست جليلة! العفو يا ست جليلة!..

ثم تناولت طربوشه البدوي الطري من زره الطويل وطوّحت به إلى قلب الميدان عند منصة جندي المرور، زاعقة وسط الزحمة التي حفت بالمشهد وهي منكوشة الشعر حافية القدمين مترجرجة في انفعالها مثل جبل من البالوظة يحتدم في جوفه بركان!

ـ ما فيك غير لسان يضرب، يا مهدود الحيل يا أجرب!!

وأمام الجمع المحتشد تقبلت من الأيدي الكثيرة التي امتدت لها طبطبة الاعتذار والمعاونة في لبس الحذاء والمعطف، ثم اطمأنت على محتويات حقيبة يدها بشكل علني قبل أن تعتلي كرسيها في الحنطور الذي كان ينتظرها عند الناصية، وجمع الحصان كل قواه ليجر حمله الضخم. على حين كان شيخ العرب داخل الصيدلية يتلقى من مساعد الصيدلي، مع كلمات الترفيه الخبيثة، ما يلزم خدوش وجهه الطفيفة من تطهير، والناس يضحكون في عجب وانبهار!

وفي المساء عدت إلى ذلك البيت فدنا مني مصطفى وأنا جالس بين المعزين وانحنى فهمست في أذنه بالموعد الذي حدده صديقى الطبيب لوصوله قبل ظهر اليوم التالي، ثم عدت إلى بيتي بعد ساعة قضيتها في أعماق ذلك السرادق الكبير الذي كان آخر مظهر من مظاهر الجاه في قصة بغلنا..

الفصل الثالث

لليل في بيتي المستوحد جو فريد، فهو نافر عند رأس البستان في الحد الغربي للبلدة، أما الليلة نفسها فكانت من ليالي الظلام التي يبدو ريفنا فيها أرحب وأعمق من حقيقته العارية...

وفي الشرفة الغارقة في الظلمة كانت عروقي تنبض بالدم الهادر فيها، وكأن في كياني شلالات ساخنة تلف وتدور في دائرة مفرغة وهي تتلمس منفذا تخلص منه إلى انسكاب خارجي هنيء ومريح....

كان النشيد الكوني المألوف في ذروة انسجامه، الهمس والصدى والحفيف والصرير والنقيق والوسوسة وآلاف الأسرار الحية المندمجة في جوقة الليل الريفي، المتجاوبة المؤتلفة، كما لو كان «المايسترو» الخفي قائما هنالك على منصته الكونية. وفي يده عصا القيادة المعجزة النورانية..

وفي هذا الجو سمعت خلفي في الشرفة الصوت المألوف لزحف شبشب «سعيدة» على البلاط، تلك العادة التي ألفتها خادمتي القديمة الطيبة منذ كانت زوجتى حية، والتي كانت تعلن بها عن ظهورها قبل أن تبلغ ركننا في الشرفة، حتى لا تفاجئنا ملتحمين في عناق... ولم يلبث أن ارتسم إلى جانب كتفي في العتمة جرمها الهائل، لا يكاد يبدو من تفصيلاته شيء، فإن لوجهها سواد ثوبها، وما يبدو من تلك الكتلة الضخمة المظلمة غير بسمة الثنايا وبريق الزجاج في يدها، الكوب الصغير وزجاجة الدواء الدقيقة، المنوم الذي لاتنساه «سعيدة» حارستي، النقط العشرون الصفراء في ماء الكوب القليل، كل قدرة الطب على منحى حظا من راحة النوم...

ومن هذا البريق وحده علمت أن الليل قد انتصف....

ـ اشرب بالشفاء، وقم أرح جسمك ما بقى من الليل.

لم أكن مؤمنا بهذا الدواء الذي يجدي معي مرة ويخيب مرات، لكني لم أقاوم القلب الكبير الذي يرعاني منذ طفولتي، فأضأت لها كالعادة «بطارية اليد» الكهربائية الصغيرة الموضوعة إلى جانب علبة السجائر على سور الشرفة، وتأملت معها تلك النقط اللزجة العشرين وهي تتساقط واحدة إثر الأخرى من فوهة القطارة الدقيقة الكامنة في قلب غطاء القنينة، وشاعت في فمي مرارتها اللاذعة من قبل أن يبلغ الكوب شفتي....

ـ ادخلي نامي يا سعيدة.. لن أتأخر هنا.. بعد لحظات أكون في فراشي.. تصبحين على خير..

ـ الخير معك وأمامك.. تصبح على خير....

وتحرك جرمها الكبير كأنه قطعة من ظلمة مريحة تتراجع نحو بطن البيت المفتوح، تاركة في الجو نفثة من نكهة صوتها النضاح بالحنان والطيبة والصفاء، ذلك الصوت الكريم، صديق عمري وبديل الأم التي لم أرها، سخي العطاء، كاتم السر، موسيقى مهدى وترنيمة وسادتي وحارس كهولتي العسرة.

أتى عليها يوم عندما كانت صبية أبنوسية لا تعرف شيئا عن الدنيا وجدت نفسها فيه مهاجرة مع زوجها من المديرية الاستوائية في السودان، ثم مقيمة في أسوان معه... واشتغل زوجها في الحفريات الأثرية سنوات، ثم وقعت لهما الهجرة الثانية على أثر حادث سرقة وقع في أحد القبور الفرعونية حديثة الاكتشاف، وكانت الهجرة هذه المرة إلى القاهرة، حيث اندمج الرجل في زمرة الخفراء الليليين في خدمة السكك الحديدية وأدمن السهر والشاي والأفيون والاختفاء عن العمل والبيت، قبل أن يضبط مع اثنين من زملائه متلبسين بسرقة مهمات تافهة من ممتلكات المصلحة، ومن تلك اللحظة اختفى من حياتها تماما، تاركا لها ابنهما «سعيد» الصغير وعبء الحياة كله...

غاصت إلى عنقها في الدوامة وهي رافعة ابنها بيد قوية فوق رأسها في عناد مستبسل، وغسلت في البيوت وطبخت وسهرت على أطفال الناس، حتى انتهى بها المطاف هي وابنها الذي علمته مهنة السفرجية، وصارت له عمة بيضاء مكورة وحزام أحمر لطيف فوق القفطان، إلى بيت من بيوت أعيان القاهرة... وهناك التقى بها والدي، فقد كان البيت لأسرة صديقه والد صديقي الدكتور شعبان، ونشأت بين والدي والمرأة البدينة الطيبة صداقة مرحة انتهت بانتقالها بعد وفاة والد الدكتور إلى بيتنا الريفي الخالي من روح ربة البيت وسلطتها، فلم تلبث أن صارت مديرة البيت والروح الأمين الذي يحرس سير الزمن فيه، وقد منحتني من اللحظة الأولى نفس الحب الكبير الذي ينعم به ابنها نفسه، ولم يعد «سعيد» مجرد سفرجي في البيت بل الرفيق والصديق والأخ، وكم سجلت ابتسامته الحلوة ووجهه المشروط الظريف في عشرات من لوحاتي، حتى جاء ذلك اليوم المشئوم الذي نزل فيه ليعوم على عادته في تلك الترعة البسيطة التي تنمو على شاطئها حياتنا، والتي لا يظن من يرى مجراها الضيق الهين أنها قادرة على إغراق كتكوت ابن يومين، فلم يخرج إلا جثة هامدة على يدي أبي المحزون.....

ولم أكن موجودا في تلك الساعة الرهيبة، وعندما هرعت إلى البيت كالمجنون تلقتني «سعيدة» في صدرها الكبير، وقبل أن أنطق بكلمة كانت هي قد أخذت تواسيني في مصابي وتمسح بيد الأمومة الحانية على رأسي وظهري...

وفي اليوم التالي دخلت حجرتها لتوارى فيها بكاءها، فوجدت جدرانها كلها مكسوة بلفتات «سعيد» وابتساماته الناطقة في أكثر من عشرين لوحة، ووجدتني جالسا هنالك في ذلك

المحراب، بلا دموع ولا صوت.... وبعد وفاة أبي واستقراري النهائي في القرية التحم وجودي بوجودها التحاما كاملا.. ولم يعد من الغريب أن تكون هي أمي وأكون ابنها بالمعنى الوجداني الأصيل، ولا عاد من الغريب في ساعات الضعف أن أبكي على صدرها الرحيم دون أن يساورني حياء الرجل من الضعف والدموع....

نامي يا سعيدة، نامي ودعيني غارقا في بحر الانسجام الكوني الشامل، ويا دبيب الدم في عروقي أهجع واسترخ ونم أنت أيضا، فهذه ساعة صلاتي الوحيدة....

ـ يا سيدي البيه! يا سيدي البيه!....

خيل إلى أنى أحلم، أني أسمع هذا النداء الضارع تحت شرفتي في حلم، وأن هذا الصوت النسوي الخافت، الذي يشوب فرحته بوجودي قلق مستغيث، يصدر من ماء الترعة الذي يفصله الجسر الصغير عن جداري، كأن الماء الجاري لن يلبث أن ينشق عن جنية خبيثة انتظرت حتى رأتني أزدرد المنوم قبل أن تخايلني بجمالها الصاعق ودهائها البارع وتدعوني...

ـ يا سعادة البيه أنا وهيبة!!....

وهيبة؟!

من أي أعماق الظلمة يبزغ لي هذا الصوت الذي لا أعرفه؟

قمت له، وانحنيت فوق سور الشرفة الخفيض فتبينت في الظلام كيانا غامضا منتصبا لصق الجدار، سرا ضائعا في سر الليل، وصوتا طامعا في الرحمة يهمس من قريب، رافعا نحوي ضراعته كما لو كنت أنا السماء ذاتها.

ـ أنا وهيبة يا سيدي إذا لم تكن نسيتني؟

لم أعرف من تكون، حتى صوتها كان مجهولا مثلها، فسألتها في ضيق عصبي:

ـ وهيبة من؟

وسلطت فوهة «البطارية» في اتجاه الرأس وضغطت الزر الصغير فانسكبت دائرة الضوء على صدر عريض يلمع الترتر البراق في زخرفة الثوب عنده، ومع حركة الضوء انكشف لي ذقن موشوم تقطعه إلى ما تحت الشفة السفلى ثلاثة خطوط متوازية، وخفق أمام الشعاع المفاجئ جفنان مكحولان، ولمحت خصلا من الشعر الغزير الأسود، وتحت الطرحة السوداء قمطة منديل أخضر على الجبين الأسمر، وحاجبين ثقيلين مزججين بطريقة فظة، فلما دخلت كفها في مسقط الضوء وهي تحاول أن تحمي العينين المضطربتين رأيت أصابع قوية طويلة يبرق في إحداها فص خاتم رخيص... وعندها قلت للمرأة:

ـ دوري مع الجدار حتى تبلغي الباب الصغير، فإني سأفتح لك يا وهيبة.....

قالت في ارتياح وأنا أضغط على زر مصباح اليد، فتعود الظلمة أشد كثافة:

ـ إني أعرف طريقي إلى هذا الباب!

الفصل الرابع

نعم. إنها تعرف طريقها إلى هذا الباب!.. ومن عجب أن الزمن تختزله لمحة، فص زجاجي رخيص في خاتم، وومضة في أغوار الذاكرة أعجب من كل عجب، وخطوات قليلة من الشرفة إلى درجات سلمها السبع، وخطوات قليلة أخرى في ممشى الحديقة إلى الباب الركني ثوان معدودات انتعش فيها زمن قديم كانت فيه وهيبة هذه صبية في عامها السابع عشر أو الثامن عشر، لائذة ومستجيرة، طريدة ومذعورة حلوة وسهلة.

وكان أبي لا يزال حيا في ذلك العهد، وكانت أرضنا لا تزال تزرع القطن والقلقاس والقمح والذرة، ولا تعرف المنجة والبرتقال، وكنت لا أزال موظفا في القاهرة، لم يخطر لي بعد، أن في وسعي أن أركل الروتين الذي يفني شبابي ويقرض حياتي، وأن أعيش حياة حقيقية جديرة بي في نشوة العمل المقدسة، وفي حضن التأمل المستريح العميق، والبحث عن سكينة النفس وعن ذلك التوازن الهارموني بين القلب والكون بين الظاهر والباطن، كي ألتقي بالحقائق الكبرى في الوجود، وألتحم بها، وأنقذ روحي وأعلو بها. وفي إجازة عابرة عدت إلى الوطن الصغير الحبيب، وكل ما في نيتي أن أشبع شوقي إلى الأرض وإلى النجوم وإلى أبي الذي كان في رأيي أعظم فلاح في العالم.

وفي ساعات الغروب الهادئة طابت لي جلساتي تحت الجميزة الكبيرة وخيل إليّ أني أوشك أن أتم لوحة قلما أبدعت مثلها القدرة الخلاقة عند كبار أهل الفن، إلى أن حدث في اليوم الرابع أن رأيت بنتا مقبلة عند منعطف الجسر البعيد في هرولة وارتباك وهي تنوء بصرة كبيرة وعندما دنت من مكاني تبينت طابعها الغجري ووفرة حظها من نضرة الأنوثة الصريحة التي لا يجني عليها الحفاء والفقر والصعلكة، وما أن صارت أمامي حتى تركت صرتها الضخمة تسقط إلى الأرض وسقطت بركبتيها فوقها والعرق يسح من وجهها الوسيم وتضرعت إليّ في ضياع مثير ملهوف:

ـ استرني يا سيدي يستر الله عرضك!

بنت سمراء حلوة لا يكتم ثوبها الأسود السابغ المتهدل فوق قميص أحمر قوة الأنثى في جسمها المتعادل المفصل، وشعرها ناعم وغزير يلمع سواده لمعان الغنى والوفرة، وعيناها جريئتان متكلمتان، وفي إحدى ساقيها فردة خلخال فضي، وفي إحدى أصابع يمناها فص زجاجي تافه، وفي ذقنها وشم أزرق يمثل ثلاثة خطوط رأسية متوازية يمر أوسطها بنغزة طبيعية تتوسط الذقن وتنحفر فيه بقوة وجمال..

ـ مالك يا بنت؟

كان لها صوت مسكين تطفح منه ذلة تغفر لجرأة النظرة، وكانت ترتعد وتتلفت:

ـ خبئني، أقبل قدميك!

ـ أخبئك؟! من أنت؟

فسكتت وغرزت نظرتها القوية في عيني، قبل أن يسترخي على حدقتيها العجيبتين جفناها المكحولان. لقد زلت هذه البنت حتما وعرف أهلها فهربت قبل أن يذبحوها، فنهرتها فجأة وقلبي موزع بين الضيق بها والرثاء لها:

ـ تكلمي يا بنت؟! هل يطاردك أهلك؟

ـ لا يا سيدي أنا لا أهل لي! أنا غجرية مقطوعة من شجرة!

ـ من يطاردك إذن؟

ـ أصحاب الصرة يا سيدي!

قالتها وهي تتلفت نحو الجهة التي أقبلت منها ثم مالت فجأة فقبضت على يدي وغمرتها بقبلات مبتلة محمومة، وبكت وهي تكرر في انكسار لم أر في حياتي كلها مثله، في استسلام كامل:

ـ أنا حرامية يا سيدي.. حرامية!

كدت أصرخ في وجهها مستهولا وجودها وكلامها، ولكنها انتفضت واقفة وأرهفت سمعها في الاتجاه الذي جاءت منه كما يفعل الحيوان بغريزته الغامضة وارتجفت كلها، وهي تتهاوى مرة أخرى ساقطة في هذه المرة فوق حذائي الذي احتضنته بقوة وهي تتضرع في جنون:

ـ أجرني أجارك الله، أكن لك عبدة!

دفعتها إلى حظيرة المواشي المجاورة لمدار الساقية ورددت عليها بابها الخشبي المتآكل، وفي اللحظة نفسها ظهر على منعطف الجسر حصانان يركضان في اتجاهنا، ولم يلبث الفارسان أن كبحا جماح الحصانين أمام منزل الساقية وألقيا بالتحية وهما يفحصان المكان الغارق في غبش الغروب بنظرات مستطلعة، فنهضت لهما بالتحية.

والوهلة الأولى في لقائي بأى إنسان هي دائما اللحظة الحاسمة بالنسبة لحكمي عليه. فأنا باطني الرأي وحكمي على الغير يصدر عن القلب رأسا وقلما يخيب حدسه أو تكشف التجربة بعد ذلك خطأه. ولقد نفرت من فوري من ذلك الشيخ وابنه الشاب ومن سلاحهما، وقبل كل شيء من ذلك الاعتداد الصارخ في وجهيهما وملبسهما وطريقتهما في الكلام، بل في دندشة الخيل وزركشة السرج واللجام. وزاد في نفوري منهما هذه الطريقة في مطاردة اللصة بنفسيهما وعلى صهوات الجياد، وكما لو كانت المسروقات جواهر غالية لا ملابس من جهاز عروس الابن التي تنتظر الزفاف بعد أيام في بلدة «ميت عساف» المجاورة، كما

لو كنا في البراري بلا قانون ولا حكومة.. فكان الرد الذي ظفرا به مني وشكراني عليه قبل أن يهمزا حصانيهما ويستأنفا المطاردة:

ـ نعم، بنت سمراء ومعها الصرة فعلا.. لقد مرت هذه الغجرية التي تتكلمان عنها من هنا من ربع ساعة فالحقا بها قبل أن يضيع منكما أثرها في كفر الصيادين القريب!

وما أن اختفى الفارسان المضحكان وراء زوبعة الغبار التي أثارتها سنابك الخيل على الجسر حتى سمعت صرير باب الحظيرة، وأطل الوجه الأسمر الموشوم المغسول بالدموع، وأطلت من عينيه الجميلتين ابتسامة عرفان ونشوة سرور:

ـ أنا عبدتك طول عمري يا سيدي ورقبتي في يديك!

ضحكت وأشرت إليها أن تخرج مطمئنة!

ـ تعالي يا بنتي فرجيني على فساتين العروسة!

ولقد كانت يومها عبدة حقا وعبدة نضرة مطواعة، لكنى بعد أن أطعمتها أخذتها إلى البيت وأطلعت أبي على حكايتها، وأضحكته على مطارديها السخيفين واستمعت معه إلى نتف صادقة وكاذبة من قصة حياتها، ثم بعثنا معها من أبلغها مأمنها في ضواحي طنطا هي ومحصولها الحريري الطيب وأتممت لوحتي، وأنهيت إجازتي وودعت أبي وعدت إلى عملي في القاهرة.

وبنفس الصوت الضارع الطامع عادت وهيبة بعد غيبتها الطويلة كالسر الضائع في الليل، وفي مكان نضارتها القديمة نضج يكاد يلمس عتبة مرحلة الذبول والأفول، وها هي مقعية عند قدمي ومغلقة في ثوبها الأسود كأنها هي أيضا لغز!

والتعب ناطق في كيانها المتهافت المتثائب، لكنها انطلقت تتكلم وتروى عن نفسها الأخبار والسير وتحاول أن تقيم لي معبرا بين ليلتنا القديمة وعودتها في هذا الليل الأسود، قبل أن يشغلها عن الكلام بخار الشاي وصحاف الطعام التي نهضت سعيدة من فراشها فجاءتنا بها... السجن؟ نعم. لقد عرفت السجن أيضا! والزواج؟... الصباح رباح يا سيدي، وسأحكي لك كل شيء. وتقبلت وهيبة الدعوة إلى النوم مع سعيدة في حجرتها بالحمد واللهفة، لكنها قبل أن تدخل سألتني:

ـ هل ظهر قاتل بغلكم؟

وقبل أن أرد عليها لكزتها سعيدة في جنبها:

ـ لمي لسانك يا مقروصة ولا تحشري نفسك في أحوال الناس!

ضحكت وهيبة وقالت وهي تغيب في داخل البيت:

ـ لساني هذا لو علمت تدفع له فلوس ليسكت، وفلوس أكثر ليتكلم!

وطوانا الليل، ومع الضحى علمت من سعيدة أن ضيفتنا المريبة لا تزال تغط في نوم ثقيل، ثم نسيناها عندما ظهر «الموكب» قبيل الظهر في الطريق الضيق الذي يشق الحقول ويمتد في خط مستقيم مسافة كيلو مترين قبل أن يصب في قلب مباني القرية ويتشعب مع منعرجات دروبها، إذ لمحت سعيدة سيارة عزيزنا الدكتور شعبان السوداء وهي تتهادى إلينا عن بعد، وكأنها هناك على البعد لا تزال حقيقة غير مؤكدة، ثم رأينا عبد الباسط خفير الزراعية النهاري واقفا على رفها الأيمن كأنه تمثال عملاق منفوش الشوارب ومتشعبط بيديه في سقف السيارة دون أن تفقده حركتها المتعثرة البطيئة شيئا من اتزانه ووقاره، وفي الطليعة والمؤخرة جمع مرح من الصبية زائط حول بندقية عبد الباسط الظاهرة.. وعندما دنا الموكب لمحنا في داخل السيارة أيضا فلاحا جالسا إلى جانب الدكتور، ثم لم نلبث أن تبينا ونحن نسارع أمام بابنا لاستقبال ضيفنا وجود الشيخ محمد المبروك شيخ البلد لابدا في ركن المقعد الخلفي، لا يكاد يشغل منه بنحافته المشهورة الشاذة غير مكان نسناس صغير..

تركت صديقي لسعيدة تأخذه في حضنها الكبير وتستمتع بعناقه المشوق فهي قبل كل شيء «الدادة» التي رعت صباه في القاهرة، قبل أن تسكن معي في ريفي، وبينهما ذلك الحب العظيم الذي يطيب لي أن أستشعر دفئه وأندمج في نقائه العطر. لكن الشيخ المبروك لم يدع لي فرصة الاندماج في هناء العزيزين وهما معتنقان، تفيض هي عليه من حنانها وينكمش هو في صدرها مناجيا إياها في طفولة عذبة: «يا أمي سعيدة!...».

لقد قفز النسناس من باب السيارة الخلفي ـ بعد أن وفقته المصادفة إلى فتحه ـ وانقض عليّ كالعصا، وتفاحة آدم ترقص في وسط عنقه طالعة نازلة!

ـ معزة الواد بهنساوي!. نصفان منفصلان ميتان على الزراعية يا حسن بك، بهنساوي الغلبان!

عانقت شعبان صديق العمر، ومن في قلبه الحب يغمض عينيه في لحظة عناق الصديق الذي طالت وحشته، فلما فتحت عيني رأيت أمامي وجه الفلاح الكهل الذي دعاه شيخ بلدنا «الواد» وهو واقف بثوبه الهين لصق السيارة حيث نزل منها وقفة أدب وطيبة وحياء وحرج، فأخذت بذراع صديقي وتقدمت من ابن بلدي وصافحته وعاتبته لأنه لا يزورني ولو في الأعياد، وسألته عن امرأته ست العيلة وابنيه محمد وعبد الفتاح، ثم سألته ضاحكا ودون أن ألتفت إلى مبروكنا الشيخ محمد:

ـ الدكتور شعبان قتل معزتك يا بهنساوي!

تململ الفلاح في وقفته ولمحت خطفة ركنية من عينيه في اتجاه المبروك، وتعثر في الكلام قبل أن يستبين لنا قوام رده:

شيء يكسف!. أنا قلت للشيخ محمد نؤجل الكلام في موضوع المدعوقة، لكن الشيخ محمد طبعه حامي!.. تفضل يا بك لضيفك والمعزة وصاحبها فداك!

وقال صديقي في شيء من الحرج:

ـ لقد رفض طول الطريق أن يلمس الجنيهات الثلاثة التي حاولت تقديمها مع أسفي الشديد.

وكان النسناس قد فرغ من مطاردة العيال الذين زفوا موكب الضيف، فعاد يتوثب حولنا وهو يثرثر ويقطع علينا الكلام. لقد كان واقفا على الزراعية يساوم «الواد» الزنكلوني بائع الفسيخ على فسيخة معتبرة، ورأى كل شيء بعينيه لكن المعزة لا تساوي في الحقيقة أكثر من مائة وثمانين قرشا، فلو دفع البك الدكتور فيها جنيهين لكان قطب الكرم.. وهو الذي أقفل فم بهنساوي منذ اللحظة الأولى التي بزغ فيها من حقله القريب ورأى معزته مشطورة ومنتهية ودمها حولها، والحكاية لا تستاهل دوشة، فما هي على كل حال إلا معزة مفعوصة.

ومال ضيفي على أذني يهمس فيها:

ـ شيخكم طامع لنفسه في الجنيه الثالث!

فقلت لضيفي وأنا أمد يدي وأستحثه بحركة حاسمة من أصابعها المبسوطة:

ـ هات الثلاثة!

فلم يقو الدكتور شعبان على كتمان الضحك وهو يجيبني:

ـ المبلغ مع الشيخ محمد!

التفت في حركة غاضبة نحو الشيخ فوجدته يسارع إلى دس يمناه في عبه واستخراج محفظة من الجلد الأسود الطري، وهدأت نفسي في الحال وأنا أرى اضطرابه وهو ينتزع منها ثلاث ورقات جديدة من ذات الجنيه ويمد بها نحوي بيد مرتبكة ناحلة:

ـ البك الدكتور حلف، والواد بهنساوي حلف، فرأيت حلا للإشكال أن أحتفظ بالمبلغ في جيبي لحين الوصول إلى حضرتك ونهو الموضوع بمعرفتك!

دسست الجنيهات الثلاثة بين طوق ثوب بهنساوي الواسع وصدره المشعر العاري وقلت له وأنا أضم كتفه بذراعي كلمات أعرف ونهو ستنهي المناقشة معه وترضي قلبه البسيط الطيب:

ـ يا بهنساوي اشتر معزة أخرى واقبل اعتذار ضيفنا كما يفعل الشهم الكريم، وتعال اشرب معنا قبل انصرافك فنجان قهوة.

وجذبته من ذراعه نحو الباب المفتوح، فسمعت همسة من المبروك موجهة من خلفنا إلى الدكتور شعبان وسعيدة.

ـ عمره ما استطعمها أو عرف قيمتها، لما يشربها مع البكوات كمان!..

ويقولون في بلدي هذا إن أكبر عيوبي هو هذه الاندفاعة العصبية التي تبغت الناس مني أحيانا على غير توقع منهم، لكن ما حيلتي في جبلة بعض الناس، أنا الذي تنطوي حياته كلها على جهد أساسي هدفه تقصير الشقة ما بين إحساسي الحقيقي وقولي وعملي، ما بين باطني وظاهري؟ استدرت فجأة لتلك العصا الآدمية الساعية وراءنا فأوقفت حركتها في اتجاه بابي، وقلت لصديقي الضيف وأنا أفرض على المجموعة وقفة أخرى مقصودة:

ـ ألم تعرف يا دكتور شعبان حكاية الشيخ محمد هذا مع الست الحلوة السمينة في مصر؟

وتهافت الرجل في الحال وتظرف في استرحامه الذي أراد أن يكون مسليا ومضحكا ومرضيا للبكوات.

ـ في عرضك يا دكتور تحوش البك عني!.. أنا بالله العظيم لا رحت مصر ولا رحت مع أي ست!

لكن صديقي كان قد فهم أني لن أسمح لهذا الرجل بدخول بيتي مع بهنساوي. وإن كنت أوثر أن أطرده عن بابي في عاصفة من الضحك المفتعل. فتكلف شعبان الاهتمام بتلك الحكاية العجيبة واستحثني على روايتها.. وكان الشيخ المبروك يعرفها ويعانيها منذ اختمرت في ذهني فكرتها فأطلقها حوله حتى صارت تلقاه على كل لسان في البلد وفي كل مجلس، كالعمل السيئ تماما. بل إن سعيدة سحبت اللوحة التي استوحيت موضوعها من هذه «التشنيعة» وأخذتها معها إلى كثير من البيوت وفرجت عليها النساء والرجال.

وقد أجبرت الرجل على أن يسمعها مرة أخرى، عند الباب، ويسمع ضحكنا وتعليقاتنا على موقفه العصيب في بيت الست بنت مصر. تصورناه منجذبا في الشارع إلى تلك الأنثى الملظلظة وحاقدا على «مقتنيها» ثم مبهوتا عندما كلمته وطلبت منه أن يتبعها إلى بيتها، وعندما دخل معها وقادته على الفور إلى مخدعها وطلبت منه أن يخلع ملابسه وينتظرها، وجلسنا على الأرض لنأخذ حريتنا في الضحك ونحن نتمثله أخيب من نسناس في قفص إذ يرى السيدة في المشهد الأخير وهي تفتح عليه الباب بعد قليل ومعها طفلها النحيل الذي تقول له وهي تشير إلى هيكل الشيخ محمد العجيب الممصوص في ملابسه الداخلية السخيفة:

ـ انظر يا حبيبي!. إذا داومت على رفض الأكل الذي يقدم لك فسوف تصبح عندما تكبر مثل هذا!

ثم تلقي إلى المبروك بنصف ريال وتصرفه!

ثم تشبع من الضحك فيجد يدي ممتدة إليه بالمصافحة.

والآن مع السلامة يا شيخ محمد!

وتاه الرجل فعلا في عاصفة من الضحك وانصرف وهو مبسوط ضاحك وشرب بهنساوي القهوة وهو ينتزع من الدكتور شعبان وعدا بشرب الشاي في داره القريبة من السكة الزراعية قبل سفره.

وعندما صرنا وحدنا سألني صديقي عن المريضة التي جئت به من أجلها، وألقى السؤال وعينه غامزة.. فقلت له: بنت عزيز عيني بنت بغلنا!

ـ بنت هارون؟ قرأت خبر مقتله أمس في الأهرام.. هل ظهر الفاعل؟

ـ الفاعل في مثل هذا الحادث قلما يظهر. هنا يكون القاتل هو عمل القتيل. نوع من حياته ومبادئه ومنهجه.

ـ قل! وقلها بصراحتك المعهودة... هل شعرت بشماتة؟

ـ بل براحة! إني ليريحني يا أخي أن يذهب زبد الشر جفاء حقا ولا يمكث في الأرض إلا ما ينفع الناس!

ـ وهل عند أهل البلد فكرة عن القاتل؟

ـ في بلدنا وحدها عشرات يمكن أن يكون كل منهم قاتل البغل. لكن الرأي العام مثل الإدارة حائر، وإن كان الارتياح الشامل هو الحقيقة الأولى في الموقف!

ـ وهل عندك أنت فكرة؟

ـ بودي لو عرفت القاتل وتعمقته في الحقيقة كما تعمقته في الخيال!

ـ والبنت؟ صدمة عصبية؟

ـ لا أدري!.. إنني لم أرها ولا أعرفها.. وأنت تعرف من حكاياتي من هي أمها جليلة.. والأم هي التي قصدتني فيك!

ـ حلوة!

ـ أنا لا أصدق أن ينتج عن جليلة وهارون خير أبدا!

ـ متى تذهب؟

ـ إذا لم تكن متعبا فإن من رأيي أن تفحصها في الحال حتى تعود فنخلص لجونا ما بقي من النهار والليل بطوله، فإنك عائد إلى القاهرة صباح الغد شئت أم أبيت، وهذا قرار حاسم وهذه سعيدة أقبلت فاسألها! كانت سعيدة تحمل خبر وصول رسول جليلة، فوضعناه في الحال في المقعد الخلفي من السيارة وانطلقنا.

ولا أعرف مصير الحوار الذي أخذ يتقطع ثم يتصل بين صديقي والفلاح الصموت الحذر القابع وراءنا، لأني لم ألبث أن انسلخت عنهما على عادتي وغصت في عالمي الباطني العميق الأغوار، سابقا الزمن وداخلا ذلك الفناء القديم الدميم ومسلما على جليلة وسائلا صديقي الطبيب بعد خروجنا عن بنت جليلة التي كشف عليها وعن حظها من جمال الشكل وجمال الروح.

وعندما عبرنا السكة الزراعية لم يكن هناك أثر لأشلاء معزة بهنساوي، لكن بقعا من الدم كانت لا تزال ظاهرة على أديم الأرض مجبرة العين على أن تروغ منها مجفلة.

الفصل الخامس

شربنا القهوة في خميلة عم آدم بستاني الأسرة الشيخ، حكيم البستان الذي لم يقرأ ولم يكتب والذي صباحه ورد وقهوته من بن غامق يحمشه في التحميص أولا بأول. ما أحلى قهوتك يا عم آدم وما أجمل الحساسية في أصابعك هذه النحيلة الخشنة، وكم في لمساتها لأعواد الزهر الرقيقة وأوراقه الغضة من حنان وفن وشعر وعبادة!

أنا مثلك يا عم آدم يحلو لي أن ينهش الزمن ساعات وساعات من عمري لا يكون لي فيها عمل إلا تأمل معجزة النماء في نبتة وليدة، ثم نظرة إلى السماء شاكرة للكون الحي أني منه بضعة خفاقة بالحياة والفهم والحب، ولو أن الحياة كانت قد أجبرتني على السعي إلى مهنة تكفل لي خبز الحياة وستر جلباب وجدار، لو أنها لم تدعمني من قبل ولادتي بجاه الأسرة، واختارت لي ضعف الحيلة الاجتماعية في غاية الناس في النهار وفي الليل، وفكر يسبح في حرية ويتأمل في صفاء وينسجم مع الشمس والندى وصفاء السكينة العطرة!

شربنا قهوة طيبة، بلا سكر يفسد نكهة بنها، فلما انصرف عم آدم سادنا صمت يفعمه خدر العبير، حتى قال شعبان فجأة وهو يسترخي في مقعده:

مصطفى هذا، ماذا يكون؟ إنه يبدو شيئا هاما في حياة البيت وأهله!

وسادت لحظة صمت أخرى قبل أن أتكلم مستسلما للبوح بمجرى خواطري.

ـ مصطفى هذا يسعه أن يقتل إنسانا بنفس البساطة التي يلوي بها عنق عصفور، وسترى بنفسك أنه روح الشر الأكبر الذي يملأ لوحات جديدة لي، عجيبة، لم تقع عليها حتى الآن عين غير عيني.

ـ قاتل محترف؟

ـ أسوأ من هذا، وأبشع من حشرة.. إنني عندما تنقبض معدتي من الغثيان يكون ردي على ما في دنيانا هذه من خسة وسفالة هو الانغماس في الرسم، دون أن يكون عندي تصميم سابق لصورة معينة أو حتى أي موضوع لها... أدخل مرسمي الذي تعرفه في أعلى البيت وأمزج الألوان أمام القماش المشدود على الحامل، ولا موضوع ولا فكرة وليس في نفسيتي غير انطباعات لقاء الشر الوضيع الذي عكر صفوي، ثم تأتى ـ أو لا تأتي ـ لحظة معينة تمتد عندها يدي بالفرشاة إلى القماش الذي تتراجع في الحال حدوده الضيقة الأربعة وتترامى أمامي إلى أبعاد كونية، وإذا بحياة اللوحة تنساب إلى الوجود في حالة من الاستغراق الكامل، وبدون وسيط من الوعي، فيتخلق على القماش البكر صقر يأكل عين كروان، أو نبات

طفيلي يتسلق أصائل الشجر الكريمة وبلابل على الأرض صريعة، ثم فجأة يظهر رأس إنساني تستبين معالمه وتحتل مكانها البارز في صدر اللوحة، صدغ صفيق تعلوه عين ثعبانية صفراء تومض بالشر والخطر، وقفا طويل غريب التكوين.. إنه دائما، سفير جليلة وخازن أسرارها مصطفى!

ـ أرني هذه الصور في الحال!

ـ وسنقف لحظات أمام صورة من بينها، كان موضوعها في البداية حمامة شهيدة ينهشها منقار حدأة شنيعة، وإذا بالشخصية نفسها تتجلى وتتأكد في قلب المأساة، القفا المديد والطربوش الطويل الفاقع الحمرة والعين الصفراء التي تروغ في لؤم خبيث... إن مصطفى بالنسبة لي صار رمزًا!

وقمنا إلى داخل البيت، فما أن بلغنا السلم الحديدي الضيق المفضي إلى المرسم العلوي حتى وقف شعبان فجأة وأمسك بذراعي وهو يضحك في عجب:

ـ تصور إننا لم نتكلم حتى الآن عن البنت ولا سألتني عنها!... قلت له مندمجا في ضحكه:

ـ وهل تكون بنت جليلة وهارون إلا مسخا؟

فسكت لحظة بدا لي أنه عاد فيها بنفسه إلى حجرة المريضة التي غادرها منذ ساعة قبل أن يقول:

ـ بل هي جميلة.. ورقيقة.. وغريبة..!

ما أعجب ما تقول.. أن تلد مثل جليلة من بغلها جمالا أي جمال! لكن صديقي عاد يقول في شغف:

ما أعجب رقتها الفذة! شيء يقف أمامه الطب حائرا إن شئت الحقيقة فهي قبل كل شيء عليلة علة في النفس تطبعها النفس في الجسد سقما وضنى.

ـ لا، بل هي طيف رقيق، شيء لا أكاد أصدق وجوده في الدنيا شعاع في قمقم.. يا لهزة نفسي عند وسادتها!.. وإني لا أفهم كيف يسع أي أم ولو كانت جليلة التي تعرف حقيقتها، أن تكون سجانة لابنتها المسكينة التي طبعت في نفسها حب الانزواء إلى هذا الحد المخيف..

تصور أني وجدت في حجرتها كتبا وأنها سألتني إن كان عندك كتب! تفكرت هنيهة وأنا أصعد وراء صديقي في السلم الحلزوني قبل أن أقول له:

ـ شيء عجيب..!!

ـ إن القلب ليخشع عند وسادتها عاشقا ومصليا..

قلت له في شيء من الضيق لا أدري مأتاه:

ـ هذه الرقة الجميلة ما هي إلا رد فعل طبيعي لحيوانية الأب والأم..

ـ هذا كلام لا يتضمن في رأيي كرجل علم أي مضمون سليم! وقفت في مكاني قائلا لصديقي الطبيب:

ـ إنه تفسير الذي يقف علمك أمامه عاجزا يا صديقي! وفي تلك اللحظة جاءنا من تحتنا صوت سعيدة الطيب:

ـ ضيف غير منتظر يا أولادي!

فانحنينا فوق الحاجز الحديدي الرفيع وقد ضاق صدري بالزيارة قبل أن أعرف شخص الزائر:

ـ اصرفيه يا أمي سعيدة، قولي له يتبخر، فنحن في حال الصعود إلى سماء الفن..

لكنها ضحكت وهي تشير إلينا أن ننزل ونستسلم:

ـ وهل في وسعي أن أطرد مثل هذه الشخصية الهامة؟

ـ من يكون؟ ألم تعلمك عشرتنا أن ساعة في رحاب الفن أعز من كل عزيز وأكبر؟

وكان وجهها الأبنوسي كله يضحك وهي تتكلم:

ـ هذا مفتش عموم مراجيح الوجه البحري!!

لكأن زبانية الجحيم يشدونني إلى القاع، لكن شعبان قال وهو يضحك على عادته من اللقب الفخم المستهزئ الذي لفظته حارستنا الطيبة من تحت:

ـ منذ متى يؤنسك بزياراته هذا الخلبوص؟

قلت وأنا أهبط في تثاقل، هبوطا في الحركة وفي الروح:

ـ لم أره منذ سنة على الأقل، وإن ظهوره اليوم في بيتي ليدهشني كما لو كان الزائر أحد حراس أبواب جهنم!

وسألت سعيدة في زفرة ضيق:

ـ أين وضعت جناب المفتش؟

ـ في كشك اللبلاب:

وكنا نحن الثلاثة وقوفا في زوايا مثلث ونظراتنا مشتبكة كأنما نبحث أزمة، عندما ترنمت مفرجة الكروب سعيدة على حين بغتة بمطلع الأنشودة التي نجهل منبعها مثل أي تراث شعبي، والتي تتردد في دروب القرية ولا يكاد يجهلها عندنا رجل ولا امرأة:

«عيال الناس في سنة أولى...»

فانفجرنا ضاحكين وانفثأ غضبي واشتبكت أيدينا هي الأخرى في حلقة طفولية مرحة، وختمنا الترتيل في براعة كورس حسن التدريب:

«عيال الناس في سنة أولى»

«يخش لهم جاد المولى»

«يارب ارحم! يارب استر!»

«جاد المولى جاد المولى!»

الفصل السادس

والضيف في بيت الفلاح منا سلطان ولو كان ابن الزواني والقتلة، وأهلا وسهلا بسيادة المفتش، والقهوة يا ولد، ودعابة كاشفة أنخس بها لحمه الوفير وأستل بها في الحال ضحكته المتهافتة الوغدة من عروق وقاره الزائف:

ـ تشربها بالصودا أم بالماء يا حضرة المفتش؟

وفي ثنايا ضحكته المتظرفة لمست حرجا من وجود الدكتور الضيف.

ـ سكر زيادة، أما الصودا ومشتقاتها وحواشيها فلها أوان آخر يا حسن بك كما تعلم، وأنت سيد الأنس كله..

ـ يا بهيم!.. لو أنك في قفص الاتهام وكنت ممثل النيابة في قضيتك لاستغرقت مرافعتي يوما وليلة، ولشرحت فوق منصة القضاة الشريفة بمبضع الحق والخير لحمك الرجراج الدهني ثم طالبتهم في النهاية بتوزيعه على كلاب داير الناحية!.. أحكي لهم حكايتك كلها في أربعين سنة، وأدمغك كما يدمغ عند سلخه بهيم المجزر، وأصور لهم نذالتك مع أهلك الفلاحين الفقراء بعد عمر مديد صبروا عليك فيه من الأزهر إلى دار العلوم إلى الوظيفة وربطوا بطونهم الضامرة حتى يجعلوا منك آدميا بنور العلم تشرف به الأسرة البسيطة ويكون جاهها ومعينها، فإذا بك في منصب مفتش التعليم الأولى تلفظهم في استعلاء مشمئز وتتبرأ أمام سعاة مكتبك من الفلاحة الشيخة الواقفة ببابك في انتظار جنيه، من أمك يا عار هذا البلد!..

ـ ماذا يقول الآن هذا الحيوان؟

ـ .. والمصيبة يا دكتور أن ضابط البوليس الجديد شاب أعزب صغير من الصنف الذي لم نجن منه في الماضي غير المصائب والفضائح.. وقد قلت هذا للحكمدار نفسه وأنا أناقشه في مكتبه طالبا منه أن يستبدل به ضابطا متزوجا وصاحب أولاد!..

يا ابن المسكينة التي عند كل شروق وغروب تكشف رأسها مستنزلة عليك الغضب السماوي ونادمة على أنها ولدتك، أنت الآن أمامي في قفص الاتهام، لا بلاغتك تخدعني ولا صلتك بالحكام تبهرني، أنت أمامي عريان، وما لك أخت ولا ابنة تخاف عليها سطو الضابط الأعزب الأهوج. ولعل الأولى منك بالخوف هو الضابط صاحب الأولاد الذي رجوت فيه الحكمدار صاحبك، إن كان أولاده غلمانا في سن اليفاعة يا ذئبنا الشاذ الأوحد!..

أما صديقي شعبان فهو صياد لبق ينصب لفريسته فخاخًا مزخرفة لطيفة:

ـ مبروك البيت الجديد يا جاد المولى بك..

فالتقطت السمكة السمينة الطعم في زهو يصطنع التواضع:

ـ الله يبارك فيك يا دكتور، وعسى أن يكون قد أعجبك؟

ـ لقد لفت نظري منذ دخلت سيارتي حدود بلدكم، فهو أجمل بيت على الزراعية.. وإن شاء الله يكون دائما بيت المسرات؟..

لمعت العينان الضيقتان ـ عينا تيس شبق ـ من خلف العوينات الغليظة المنبعجة:

ـ كلفني حتى الآن فوق الألف جنيه وحياتك!..

ـ يا سافل! العجوز أمك ما تزال تفعص قملها في الحجر العتيق المدفون في مجاهل الدرب المعتم المسدود، حيث خلفها أبوك التعس والنعجة والحمارة والعري والجوع وأخواك عبد المعطي وعبد الحق في أربعة الأمتار المربعة العطنة، أحياء كالأموات، نفضوا منك أيديهم كما نفضتهم من قلبك، دفؤهم في ليل الشتاء بطن الحمارة والنعجة، وفئوسهم في أرض الناس أجيرة، وصلاتهم أن يلعنوا أباهم يوم قذف في الوجود بذرتك. وفي بيتك الجديد على السكة الزراعية ـ في حدود تلك المئات الكثيرة من الجنيهات التي تحولت إلى جدران وبلاط وأسمنت وأثاث وحديقة ونعمة ـ صور عارية دميمة في أدراج سرية وستائر ما تستر شيئا وكتب محنطة في جلودها، وسجاجيد تدهسها أحذية الضيوف من رجال التعليم والإدارة، ومخابئ لزجاجات الكونياك وملاءات فوق السرير منمنمة بالوشى والبقع القذرة.. وفي الحديقة أرجوحتك ذائعة الصيت التي ألبستك سخرية اللقب الشائع «مفتش عموم مراجيح الوجه البحري»، إذا مر الناس بها في الليل رأوا طباخك اليافع الوسيم مستمتعا بذبذبتها المهدهدة، وعلى الأرض من تحته زجاجات فارغة ملقاة كالجثث، عند بساط ممدود يسترخي فوقه جرمك الرجراج الطري في نشوة بهيم يتمطى في التراب ولا يبالي... قف أيها المتهم.. قف واعترف أنك أيضا من أسباب الغثيان الذي تنقبض منه معدتي، ولتتوقف عن الذبذبة إلى الأبد أرجوحتك، وأنتم أيها القضاة، مكنوا مبضعي من هذا اللحم الصفيق الذي لا تخفق فيه روح!

وعندما انتبهت إلى الحديث عند ذكر الأرجوحة كان صديقي قد خرج بصيده الغافل من البيت الذي كلفه ألف جنيه وظل يطوف به في أرجاء الحديقة حتى زنقه في ركن الأرجوحة وأجلسه عليها كما يُجلس السلطان ضحيته على الخازوق:

إنني في الحقيقة لا أتصور أرجوحة بدون أطفال يملأ مرحهم الدنيا وهم يلهون بها، وإلا فمن عندك يستخدمها؟!

أيها القضاة افتحوا آذانكم جيدا واسمعوه وهو يمضغ الكلمات والعوينات السميكة تهتز فوق منخاره الأفطس، ومقعدة تتململ في الكرسي:

ـ لا أحد في الحقيقة.. لا أحد.. عندك حق يا دكتور. ولو ركبتها أنا وشاهدني فلاحو بلدنا لفضحوني.. تصور المفتش يتأرجح في مثل هذا البلد!..

قلت له في إشارة عاجلة:

ـ إذن لجعلوا منك موضوعا لموال أو أنشودة!..

ومن اضطراب أهدابه وحده علمت أنه يعرف النشيد المهين الذي يفضح شذوذه ويعلن خوف الجماعة على غلمانها في فصول المدارس التي يفتش عليها ثم عاد شعبان يعصره في ابتسامة:

ـ أليس حراما أن لا يستمتع بهذا البيت الجميل غير الولد الطباخ يا جاد المولى بك؟.. إنى أقترح عليك أن تكمل نصف دينك وتنجب للأرجوحة كبشة من الصبيان والبنات..

تجاهل مفتش عموم مراجيح الوجه البحري الإشارة إلى غلامه وتعلق بنصف دينه، واضطربت فصاحته المعهودة وهو يتكلم زاعما أنه من أجل هذه النقطة سعى اليوم إلى بيتي مستأذنا في استشارة طبية.. ولقد اختار العروس فعلا وجاء ينشد عند الطب هذا الفضل، وما يظن إلا أننا نقره على أن من غير المعقول أن يقدم رجل متعلم على الزواج بعد أن جاوز الأربعين دون أن يطمئن على صحته وسلامة ذريته في المستقبل.. لا يخدعنك يا شعبان هذا التيس السمين فما له في الزواج مأرب ولا عرس له في النساء ولعل بغيته عندك بعض المقويات الجنسية!...

ليخرج من قفصه وليتجرد من ملابسه وليقف عاريا في وهج الحقيقة، قم يا طبيب فخذه إلى حجرة في البيت واستخدم إن شئت مبضعك الحساس الشافي...

وبعد عشر دقائق عاد المفتش والطبيب إلى الكشك فأدركت بنظرة خاطفة من الوجه السمين المستبشر أن شعبان قد أدخل الطمأنينة إلى قلبه على نحو ما، وسألت صديقي:

ـ طمئني على صحة حضرة المفتش؟

فقال يكشف لي خلاصة الحال:

ـ ما شاء الله حضرة المفتش صحته خير من صحة شاب في العشرين، وفي وسعك أن تبارك له، لأنه سيعقد قرانه بعد شهرين على الأكثر.. وإن كنت قد نصحته بإجراء بعض التحاليل الطبية زيادة في الاطمئنان وإبراء للذمة...

واستشعر الزائر من بقائي واقفا رغبتي في إنهاء الزيارة، فمد يده للمصافحة:

ـ أرجو يا حسن بك أن تقنع الدكتور بأخذ أجرة الكشف! فقلت له بلهجة الحاوي الراغب في إدهاش المتفرج:

ـ الكشف في بيتي مجانا للجميع!

فشد على يدي في حرارة.

كيف أشكركما على هذا التلطف..

قلت وأنا أمشي به في اتجاه الباب:

ـ بدعوتنا إلى القران السعيد.. هل من الفضول أن أسأل إن كانت العروس من بلدنا؟

ـ بنت بلدنا طبعا!

وسكت لحظة قبل أن يقول للدكتور شعبان وهو يعيد مصافحته:

ـ يظهر أن الكشف بالمجان في بيت حسن بك وفي جميع بيوت بلدنا أيضا من أجل خاطره.. فقد علمت قبل حضوري أنك رفضت أن تأخذ شيئا من حرم المرحوم هارون بعد الكشف على كريمتها المريضة. وإن شاء الله يكون شفاؤها على يدك يا دكتور..

وتردد هنيهة قبل أن يبلغ هدفه:

ـ هل أستطيع أن أطمئن على حالة الآنسة؟

تبادلنا نظرة قبل أن يقول شعبان، في إيجاز هو الآخر:

ـ كل خير إن شاء الله..

واستلم الطريق آخر الأمر زائرنا الثقيل فزفرنا بتنفس الارتياح ونحن نعود إلى ابتسامة «سعيدة» وكل جونا الطيب..

ـ هلم نصعد الآن إلى المرسم، فإني أريد بعد أن ترى لوحاتي الجديدة أن أرسم ضيفة تصلح موضوعا لصورة..

والتفت إلى سعيدة:

ـ ألم تستيقظ بعد الأميرة النائمة؟

فسأل شعبان في دهشة ضاحكة:

ـ هل تنزل في ضيافتكم أميرة؟!

ـ نعم يا سيدي! أميرة وقفت ببابنا في قلب الليل مركبتها الذهبية وهبطت هي منها بذقنها الموشوم وثوبها البراق الذي يلمع في صدره الترتر، وفي أصبعها خاتم ثمين يزينه فص ثمنه مليون، يخطف سناه البصر!.. الأميرة وهيبة يا سيدي!

ـ ولماذا لا يخطب صاحبكم مفتش مراجيح الوجه البحري هذه الأميرة وهيبة ويكتفي بصفاء العليلة التي ليست أميرة؟!

قلت في دهشة: صفاء؟!

ـ بنت جليلة، ألم تشعر مثلي أنه كان يقصدها عندما تكلم عن عروسه؟

وكل ما وجده لساني ليقوله، والأرض تنساب فجأة من تحت قدمي كما لو كانت رمالا خادعة متحركة:

ـ لم أكن أعرف.. لم أكن أعرف أن اسمها صفاء!

الفصل السابع

الطريق طويل، لكني أحببت في هذا الصبح الطيب الفاتر من أغسطس أن أبلغ هدفي مالئا سمعي من وشوشة الهواء المتجاوبة بين أوراق الذرة المترامية في مسطحاتها الهادئة، فلم تلبث خطواتي أن اتسق فتورها الرتيب مع الكون الأخضر المنبسط الذي أشقه على مهل حاملا في يدي حكمة طاغور وحيرة تولستوي في مجلدين أردت لهما، كما لو كانا مصباحين قادرين على هتك حجب ظلمة صفيقة، أن يستريحا على وسادة مجهولة بعد أن يقتحما أرضا حراما!

ومن الكون الواسع الأخضر الذي ينبض بعصير الوجود الحي وينز بالوشوشات الحلوة والهمسات الحية تلقفني الثعبان الأعمى الذي ما شممت رائحة عطنه المزمن مرة إلا كرهت وجودي ورفضته، فاغر الجراح دميم القبح نافث الصديد، وما أجهل من ذلك الدرب الرئيسي في القرية باب جحر مهما اندفن في بطن الطين ولا يغيب عني في نشواتي أنين دمه النازف على مدار السنين.. هنا تبدو صدقاتك وزهدك ونعالك المرقعة يا تولستوي مضحكة، وتقف حكمتك يا طاغور مستغفرة على الأبواب!..

تبدل ميزان شعوري وترددت خطواتي في طين الدرب وخطر لي أن أعود، فأرد الكتابين إلى مكانهما من مكتبتي وأستبدل بهما روايتي حب مسليتين من الطراز السهل الذي كان «سعيد» يدمن قراءته قبل أن يغرق في الترعة وصارت تحياتي التي أنشرها عن يميني وشمالي لعجائز الفلاحات وصغيرات الصبايا أقل حرارة وأعسر منالا، ولم أقف بباب الحاجة مسعودة الضريرة لأنثر النقود الفضية في حجرها وأسمعها رنينها فتسمعني دعواتها، بل اندفعت بأعصاب متوترة ونفس مرة نحو فوهة الدرب المفضية إلى خلاء الغيطان المشرقية المحيطة بالسكة الزراعية، وتجنبت سكة الجبانة القبلية، وسلكت طريق نقطة البوليس من وراء سور حديقة المفتش مشيحا ببصري عن قمة الأرجوحة الساكنة في ركن الحديقة، ثم انحدرت في ممشى مترب تظله عمالقة الجزورينا الرشيقة الضاربة جذورها في حضن ترعة راكدة..

ولم تمض دقائق تهادت خلالها خطواتي واسترخت أعصابي حتى طالعتني عن قرب جميزة هارون وتلك البوابة الشوهاء التي أعلم أن وراءها في ركن الفناء عربة حنطور قابعة تنفلق بين عجلتيها الكبيرتين عصابات من الدجاج وتحلق فوقها أسراب من حمام أليف لا يعرف الشبع، وغمر نفسي إحساس قوي بأني في حاجة إلى هدنة قصيرة مع نفسي قبل أن أصفق عند تلك البوابة مستأذنا في الدخول وجه مصطفى الكريه، فجلست فوق أحد الحجرين الكبيرين (المسروقين من مهمات مصلحة الطرق والكباري) اللذين يحفان بمدخل

البوابة، وأشعلت سيجارة بعد أن أرحت طاغور وتولستوي في حجري.. والتقى بصري بالعنوانين «الكاتب الزاهد» و «كنه الحياة» وأنا أنفث دخان سيجارتي، وفي ذلك الاسترخاء النفسي الذي لا تتوضح فيه حدود الإرادة فتحت يدي كتاب طاغور، وقرأت: «على الإنسان أن يعرف أنه إنما يقود نفسه للجنون ويمزقها ويأكل من لحمه ودمه عندما يحجب نفسه عن لمسة الأبدية المحببة المظهرة ويعود إلى وجوده المحدود ملتمسا منه الغذاء والدواء، لأنه عند ذاك يحاول في التعبير عن نفسه أن يدهش غيره لا أن يجذبه، ويفقد النظرة الكاملة إلى الإنسان الذي هو بسيط وعظيم في آن واحد.. وعندما لا يمتد شعور الإنسان إلا في حدود حاجات نفسه القريبة فإن الجذور العميقة التي في طبيعته لا تجد لها غذاء وتبلغ روحه حافة الإمحال والجوع، وهو عند ذاك يفقد حكمته الباطنية ويقيس نفسه بحجمه لا بالحلقة التي تربطه بالمصير، بلا نهائية الكمال الكوني، بالنغم الفياض الراقص في الوجود..»

ـ اليوم زارنا النبي!!

كلمات ثلاث كان الوجود كله يغني في قلبي عندما سمعتها، كلمات ثلاث دقت رأسي من الخلف كضربات مطرقة غاشمة وكانت آخر ما أتوقع في لحظة الانسجام، ودودة بشرية أعرفها ـ كأنما كانت في مرصد ترقب قدومي من بعيد وتتابعه خطوة خطوة ـ بزغت لي من وراء السور لتهوي بي من فيض الانسجام إلى أرض هارون وجليلة.. نعم؟! نعم يا دودة البركة الحمئة، يا مضغة من وحل البرك العفن تحرس بوابة الألغاز المعزولة عن الوجود الصافي؟..

تفضل يا حسن بك.. تفضل.. خطوة عزيزة.. تفضل بالانتظار في غرفة الجلوس حتى أخطر الست بتشريفك للبيت وأهله.. يا أهلا ويا سهلا زارنا النبي!..

نهضت واجتزت البوابة في صمت، لم تفز مني بلفتة هذه العين الصفراء اللئيمة ولا سمع مني هذا الصدغ السميك الجلد كلمة، فمشى أمامي مصطفى نحو غرفة الضيوف التي تتصدرها صورة هارون الكبيرة، ويغلف تراب السنين المتراكم أزهارها الصناعية السمجة كما ترقد ذراته الغبراء فوق استداره الكرش العظيم في الصورة.. صباح البغال.. أين أنثاك يا ساكن الإطار المذهب.. أقبلي يا جليلة، تعالي انثري فوق هذه الأريكة العريضة كل لحمك المنفر، حصاد الموالد والمطابخ والمخادع، واسكبي في سمعي صوتك الدهني اللزج واكذبي حتى في التحية والابتسامة وزيفي كل شيء حتى شرف الأمومة، تعالي بالقناع ساتر السر في صفقة البيع الجديدة، إن كنت حقا تبيعين وحيدتك الأسيرة لصاحب الأرجوحة ولما يفرغ دود القبر من التهام كرش بغلك.. تعالي اعرضي على بصري المشمئز تضاريس صدرك الجبارة وسمانتي ساقيك الهائلتين واعترفي أو فالويل لك..

ودخلت رئيفة زوجة مصطفى حاملة صينية كبيرة يتوسط فراغها فوق بقع المفرش كوب الماء ذو الحافة الذهبية وفنجان القهوة، فلما انحنت أمامي لتضع الصينية على الرخامة المشروخة التي تعلو نضدا مذهب القوائم شممت من طيات ثوبها عطرا زاعقا زعيق

بخور الأضرحة الفاغم الذي تغثي له النفس، وقالت المرأة وهي تنسحب طاوية طرحتها على صدرها:

ـ الست تحضر في الحال..

ودون أن تدري صاحبة مصطفى كانت نظرتها فاضحة لسريرتها:

«هل هو مجنون حقا كما يقال؟ وما الذي يجيء بعدو سيدي هذا إلى بيتنا على غير انتظار وبلا دعوة؟.. لئن كان مجنونا فهو من النوع الهادئ الذي لا يخمش ولا يعض ولا يغرس إصبعه في عين من يكلمه!.. ماذا يريد منا؟.. ماذا يريد؟..»

وبينما كان ظهرها يختفي من الباب المفتوح تخيلتها ـ فجأة ـ كما تكون مع مصطفاها تماما، عريانة في الخلوة ومتهتكة ومفتعلة، ورفعت بصري الهازئ عن أردافها المرتجة إلى عيني هارون الحيوانيتين في الصورة وقالت له ابتسامتي: «ومعك أيضا يا بغل يا حشاش يا سكران» فما أظنك كنت تتعفف عنها، وما أظن أن زوجها كان يغضبه منك أن تقوم عندها مقامه كلما طاب لك.. وهل للعبد أن يغضب أو تحفزه نخوة..»

وظهرت جليلة في ثوب الحداد فالتقطت قرون الاستشعار الحساسة في كياني العصبي المرهف ما وراء أدبها في استقبالي من فضول إلى الوقوف على سر زيارتي، فانتظرت حتى أخذت عجيزتها الجبارة راحتها على طول الأريكة وعرضها ثم ابتدرتها قائلا: إني وجدت من واجبي أن أستفسر بنفسي عن صحة الآنسة صفاء، كما أحمل إليها تحية طبيبها الدكتور شعبان الذي سأل عنها بالتليفون من القاهرة، وراقبتها وهي تتكلم قائلة إن الدكتور شعبان إنسان كريم وإنها لا تعرف كيف تشكره وتشكرني، وأن ابنتها أحسن حالا وإن تكن أعصابها معتلة والتفاهم معها حتى في أتفه الأمور عسيراً...

وتتهرب من تعاطي الأدوية ولا تكاد تصيب من الطعام شيئا..

ـ إنها تصرخ في وجوه الخدم وترهق نفسها في السهر والقراءة، كنت أراقبها من خلال لهفة السؤال الصامت الذي يملأ نفسي وينشد الجواب من خلال كلماتها ونظراتها: هل في نيتك، يا امرأة أن تسمحي لي برؤية البنت ومحادثتها والتعرف إلى حقيقتها، أم تدنس يداك الأميتان الكتابين قائلة إنك ستحميلنهما إليها بنفسك مع تحيتي؟ وهل من حق الأيدي النجسة أن تدنس أستار المعابد المقدسة حتى يكون لهذه الأصابع الغليظة التي لم تعرف غير مداعبة الدف والصاجات وإشباع الشهوات أن تلمس كلمات تولستوي أو تدنو من ترانيم طاغور وتطمس حكمة الكلمات المضيئة؟.. تنحي عن طريقي يا لحم المجزر، تبخري، تبددي، إلحقي ببغلك في غيابة العدم، أفسحي الطريق يا دهن الموالد!. وإذا بها تقول لي فجأة في ابتسامة هادئة:

ـ أعتقد أن البنية يسرها أن تتلقى بنفسها تحيتك المشكورة وتحية الدكتور، فهي في حاجة إلى محادثة تنعشها!..

ثم أضافت بعد سكتة قصيرة مفاجأة أكبر، كأنما مسها من مشيئتي الصامتة سحر يطويها:

ـ وسوف أسألك إن سمحت أن تكون رسولي عندها في مسألة أراها صالحة لها وترفضها هي في انفعال أخاف منه على صحتها الهشة.. أتسمع يا بغل؟ ما رأيك في هذا؟

ضممت المجلدين بين يدي وغرست نظرتي في عيني المرأة الواسعتين بنظرة صريحة مستفسرة.

ـ أنا يا سيدتي؟

ـ أنت يا سيدي!

ـ أليست هذه ثقة كبيرة في رجل كان حتى الأمس القريب مجهولا منك بل عدوا وخصما؟

ـ كنت عدو زوجي لا عدوي!!

ووزنت كلمتها قبل أن أسألها مرة أخرى:

ـ ومن يدريك أنني أهل لهذه الثقة؟

ـ حدسي في الرجال لا يخيب!

ـ وهل يسع فتاة صغيرة محدودة الخبرة مثل ابنتك أن تمنح هي الأخرى ثقتها شخصا تراه لأول مرة، وكل ما تعرفه عنه أن أباها كان يدعوه المخبول ويفكر في قتله؟

ـ هذا ما لا أدريه، قد تطمئن إليك وقد لا تطمئن، وإن هي إلا تجربة!

ـ وما هي المسألة يا سيدتي؟ مشروع زواج؟

قلتها وأنا أفكر في المفتش وعويناته وبطنه ومنشته وأرجوحته وتعلقت نظرتي بشفتي جليلة الغليظتين..

ـ عقلها ينبغي أن يعود إلى رأسها، وقد فشلت أنا في إعادته وفي إحساسي منذ التقيت بك أنك جدير بأن تكسب ثقتها وتهديها إلى ما فيه سعادتها وسعادة أمها!..

وصفقت فجأة بيديها دون أن تنتظر مني ردا فما لبث وجه رئيفة أن ظهر بالباب، فقالت لها في صوت هادئ:

ـ قولي لصفاء إن حسن بك سيزوها الآن في غرفتها مستفسرا عن صحتها وقولي لها أن تلم شعرها!

وما أن اختفى الوجه المكتنز الأسمر من الباب حتى التفتت جليلة نحوي قائلة لي في طمأنينة من تفضي بنجواها إلى صديق قديم:

ـ صديقك الدكتور شعبان قال لي إن صحتها لن تبلغ غاية التحسن إلا بعد أن تتزوج، وها هي الطفلة العنيدة ترفض العريس!..

تقبضت أصابعي على الكتابين وأنا أسألها في قلق:

ـ ما عمرها؟

ـ ١٩ سنة..

ـ لعله لا يعجبها؟

فأفلتت منها بداية ضحكة أوشكت أن تذكرني بأمها نعيمة الآلاتية، لكنها كتمتها بإشارة من ثوب الحداد:

ـ العريس الذي اخترته لها يعجب الباشا!

ـ إن ما يعجب الباشا يا ست جليلة قد لا يعجب الصبية! واسمحي لي فوق هذا أن أعجب لزواج يدبر في بيت رجل لم يمض على مصرعه غير أيام قليلة!

نهضت جليلة ومشت فتبعتها نحو سلم داخلي تصعد درجاته الخشبية المكسوة بشريط من الكليم القرمزي إلى الطابق العلوي، وقالت لي ونظرتي منحصرة برغمها في ارتجاج عجيزتها الهائلة أمامي وهي تصعد في عناء مستندة إلى الدرابزين اللامع بيدها الضخمة البيضاء وهي منحنية قليلا إلى الأمام:

ـ لن يتم الزواج إلا بعد سنة، وكل ما سنفعله الآن هو الارتباط والتفاهم وقراءة الفاتحة!

ـ في الوسع أن تنتظري على الأقل إلى ما بعد الأربعين!

ـ الرجل لا يريد منا غير كلمة!

ـ هل أعرفه؟

ـ كان عندك من يومين!

ـ جاد المولى بك؟

وأمام باب مفتوح يكشف عن جزء من مرآة كبيرة وقفت ورفعت صوتها:

هنا... تفضل.. يحسن أن تدخل عندها وحدك، فقد قالت لي منذ ساعة، أنا أمها، إنها لا تريد أن ترى وجهي!.. دلع البنات!.. ادخل يا حسن بك، ادخل ورد للبنت عقلها في رأسها.. أنا في انتظارك في الصالون فاحمل لي البشرى أكن لك شاكرة مدى الحياة!...

الفصل الثامن

حدث لي خلال الثواني التي استغرقها جمودي المتردد عند ذلك الباب نوع من اليقظة المغيظة، شعور غير مريح بأن تلك المرأة طوتني بسهولة وحركتني في اتجاه إرادتها غير عابئة بإرادتي، وبأني كنت في يدها عجينة لا صخرة...

ومن الداخل جاءني نغم رقيق: تفضل...

دخلت، السرير في الركن الأيسر، خطواتي القليلة منذ احتواني المخدع غير واثقة من نفسها، وأول ما رأيت منها أصابع نحيلة ممسكة بكتاب، وكانت ممددة في السرير تحت غطاء خفيف وشعرها الغزير متناثر على الوسادة حول وجهها الصغير العجيب، الذي يحير النظرة الأولى بما فيه من غرابة اللطف وروعة الرقة، وعطر شاحب في الجو، غامض وعندما تكلمت لترحب بالرجل الغريب الذي دخل عليها كان صوتها صوت طفلة حيية انتزعت من أحلام يقظتها:

ـ أهلا وسهلا.. تفضل بالجلوس.. هذا الكرسي مريح!

كنت مرتبكا وكان شعوري قويا بإلحاح عينين عميقتين تتعرفان في صراحة إلى شخص، وعندما جلست قال لي الصوت الطفل في عذوبة شاحبة كعطر المكان:

ـ كنت أحب أن أستقبلك في الشرفة لولا المرض... المنظر من شرفتي جميل..

تمنيت لها الشفاء في كلمات متعثرة خافتة، ثم نظرت إلى الكتاب الذي أراحته إلى جانب رأسها فوق الوسادة وقلت لها مغرقا نظرتي في جمال عينيها:

ـ من الواضح أن حضوري أفسد عليك لذة القراءة!

ابتسمت بكل وجهها الحسن، حتى الوجنة والعنق شاركا في الابتسامة كأن في قلبها ومضة تندفع عند الابتسام فتشيع في كيانها كله، وقالت:

ـ لابد لي من الراحة كل نصف ساعة على الأكثر، لأني أشكو عند القراءة من صداع لا أحب أن يلازمني، فهو يبكيني بالدموع... وقلما يدخل عندي وجه جديد أو صوت جديد، فأنت ترى أن حضورك لم يفسد من لذتي شيئا، بل إنه هو في ذاته لذة وسرور لي.

هزني أنا أيضا سرور أشاع في نفسي السكينة:

ـ هل تسمحين لي بقراءة عنوان الكتاب؟

فناولتني الكتاب وهي ضاحكة:

ـ تريد أن تحكم على ثقافتي؟ إنها في الواقع مخزية!

وقبل أن أرفع بصري عن العنوان «الفارس يحب ـ رواية غرامية اجتماعية تاريخية ـ بطلها الشفالييه روسان العجيب» سمعت الصوت الطفل يقول لي في اعتذار خجول:

ـ لاتنس أني لا أقرأ إلا ما أجده مع عبد الجبار بائع الصحف الذي يجيء من المركز على البسكليت.. هل يمونك أنت أيضا بالصحف والمجلات والروايات؟

ـ إنني أعتمد عليه في الصحف اليومية والمجلات، أما الكتب فإني أنتقيها كل شهر أو شهرين من مكتبات القاهرة، وقد جئتك منها اليوم بكتابين.

ـ أخشى أن تكون كتبك صعبة!

والتقت على هذه الكلمة عيوننا فوجدتني في بحر من عسل، هائما على زورق لا غريقا في لجة، لكن اعتناق نظرتينا لم يطل، إذ لم تلبث هي أن تفادته بابتسامة سرت في قسماتها كلها مسرى الضوء الساحر في المصباح الجميل وأسبلت جفونها على العسل الصافي، ولاذت نظرتي بصورة في إطار عتيق معلق قرب السرير لصبية في سنتها الثانية عشرة أو الثالثة عشرة لم يكد صدرها ينهد، وقالت لي الصورة ناطقة في عمق وجداني: «هكذا كنت من سبع سنين، بضفيرتين طويلتين وفستان سقيم الذوق وشرائط رشقتها يد جاهلة ورضيتها نفس ساذجة، أما إن شئت أن تعرف ما صار إليه وجودي فارجع إلى الجفون المسدلة واسألها أن تسفر عن سرها، وغص في بحور العسل».

لكني ظللت أطوف بنظراتي الهاربة في أركان الحجرة، خزانة الثياب الصغيرة، ونقوش السجادة القديمة، وصورة لجليلة تتوهج فيها زخارف الترتر في فستانها وفي قمطة شعرها، ومع جليلة في الصورة بلاص، والمرآة الكبيرة العالية التي تواجه الباب وتحف بها أزهار صناعية مغبرة ناصلة الألوان، وأعداد قديمة من المجلات الأسبوعية والشهرية، وكتب قليلة، وزجاجات الأدوية، والشرخ في طبق فنجان القهوة المكفي على فوهة دورق زجاجي رفيع العنق منبعج البطن، مليء إلى ثلثيه بالماء وعنوان الكتاب الراقد على الوسادة «الفارس يحب».

وسألتني عن الكاتبين، وتكلمنا قليلا عن تولستوي وطاغور اللذين لم تكن تعرف حتى وجودهما ولا اسميهما، ووعدتني أن نتكلم عنهما طويلا بعد أن تقرأ الكتابين، ثم سألتني فجأة وهي تطوي ذراعيها على المجلدين فوق صدرها:

ـ قل لي الآن بصراحة: هل تجيء اليوم بإرادتك ورغبتك أم أمي هي التي أرسلتك؟

وكانت الابتسامة في هذه المرة ذكية لم تداخلني أمامها ريبة في أن أي التواء في موقفي غير ممكن ولا جائز، فقلت لها:

ـ أمك أرادت أن أكون سفيرها عندك، أما الآن فنحن صديقان وقد تغير الموقف تماما!

والصوت الطفل اكتسب مسحة من أنوثة مفكرة:

ـ كنت طول العمر منعزلة وبعيدة عن الحياة لا يبلغني منها إلا انعكاساتها.. إن أنا إلا جاهلة.. أجهل حتى عواطفي الحقيقية.. بيني وبين العالم حجب تنفرج قليلا في بعض الأحيان فإذا بالواقع الذي يواجهني مدى لحظة عابرة يجعلني حزينة ومتألمة وضائعة، ثم تنسدل الحجب مسرعة وغيورة على عزلتي.. وأنت أول رجل أكلمه بحرية مستريحة وأستروح في قلبه نعمة الفهم، وهذه أول محادثة طويلة مع أي إنسان منذ وعيت الدنيا.. أبي نفسه لم يكن في وسعه أن يكون صديقي فقد كان عاجزا عن أن يحب أحدا. كان حبه الوحيد كما تعرف للمال والسلطة.. إن كسب المال لابد شيء فظيع!

ووقفنا هي وأنا عند هذه العبارة العجيبة الأخيرة دون أن نهرب من عناق العيون، ثم اعتدلت في فراشها فجأة وهي تسألني في صوت متغير ولهفة منطلقة:

ـ من قتله؟ من قتله؟

ولم أجد ما أقوله عند هذه المفاجأة، فارتمى رأسها فوق الوسادة في حركة يائسة، وهمست وهي تمد نحوي يدها الدقيقة المستنجدة:

ـ هناك أشياء كثيرة أريد أن أفهمها!

الفصل التاسع

لما الإله العظيم.. شاء م التراب آدم

ومدده ع التراب.. تمثال.. جماد.. آدم

نفخ في صورته وقال له اسمعني يا آدم

وانظر وشوف حكمتي في جنس بني آدم

من قبل ما انفخ جمال الروح في تمثالك

من غير ما روح الصفا تسري في صلصالك

من غير ما تبقى جميل وشريف في أفعالك

إش تسوى.. حفنة تراب في الأرض يا آدم

صوت عم آدم عند كشك اللبلاب، على خشونته الأرغولية عريض وعميق وجواني، والصبح عبق برائحة الأرض المثمرة وهي تعرض على الشمس كل ما عليها من حياة، ووهيبة أزهى نضرة من حالها يوم ظهرت على بابنا معتصمة بجدارنا من سوء لا تريد أن تتكلم عنه ونريد نحن أن نجبرها على كشفه، قابعة عند قدمي في وضع جارية شاكرة، بعد أن حكت لي عن آخر رجل عرفه وجودها القلق المتوكل على المصير، وكيف انتهت حياته القصيرة في زقاق قريب من ضريح السيد البدوي بساطور في نافوخه من يد جزار عاشق، لكن الصفاء في دندنات عم آدم يسري مالئا اللحظة كلها ومبددا الزقاق والجثة والسكين ووجود وهيبة ذاته، وكأن الكلمات التي يعيدها الصوت الأرغولي هي صلاة صبحنا المبشرة بأرواح مستعلية على دمامة الشر، ونفسي منبسطة للوجود ومنسجمة معه ومفعمة مثله بالحب.. والرجل الطيب أعاد ترنيمته مرات قبل أن يسكت ليسود ذلك الصمت الذي تشربه روحي، صمت اللحظات العميقة التي تعقب كل انفعال صادق وكل فيض روحاني وكل كلمة طيبة، وثرثرة العصافير التي تكسو سقف الكشك بمظلة صداحة تتوارى في الصمت الكبير، ووهيبة في سكون الجماد، ولعل وجهي في لحظة الارتواء الوجداني هو الذي أجبرها على الصمت والسكون. لكن الحياة دبت فجأة في التمثال عندما اعتدلت المرأة وظلت لحظة في وضع الاستماع قبل أن تقول في شبه همسة:

ـ حنطور هارون!

رفضت في الحال هذه اليقظة غير المعقولة:

ـ لا تخرفي يا غجرية!

ونهض آدم عند سياج اللبلاب وبسط ظل كفه وقاء لعينيه من الشمس وهو يستطلع طريق الشرق، وفي اللحظة نفسها رنت صلصلة جرس حنطور بعيدة، وما أن خطوت إلى باب الكشك حتى رأيت وهج الشمس على المصباحين النحاسيين في مقدمة الحنطور الذي كان يتأرجح على مهل في طريقه إلينا، وسمعت من ورائي صوت آدم الخافت:

ـ اللهم اجعله خيرا!

وقالت وهيبة في وضع التأهب للفرار:

ـ اسمح لي يا سيدي أن أدخل جحري حتى تنصرف جليلة! واختفت في ذعر أرنبة جبانة بعد أن أحيت امرأة هارون في شعوري، فإني إلى تلك اللحظة التي لفظت فيها اسم جليلة لم أكن فكرت في راكب الحنطور لأن يقظتي من الحلم دائما أبطأ وأصعب، وكل ما كان يملأ نفسي هو أثر رؤية تلك العربة وهي تتحرك لأول مرة بعد موت هارون، ودهشتي من حركتها في اتجاه بيتي...

إن الغجرية أجهضت مشاعري، فهي دون أن تدري اختصرتها لي في قسوة غافلة ووضعتني في الحال أمام الحقيقة، فلم ير الحياة وهماً جميلًا. كان يعدني أن أعيش فيه ولو مدى ومضة قبل أن أفيق من سكرته على استحالة أن تكون الجالسة على جلد كرسي العربة الزيتي القديم هي صفاء لا أمها!

وقال البستاني وقد توضحت في تجعدات وجهه السمح ابتسامة طيبة

ـ لا يهمها كلام الناس، هذه الجريئة!

ولم تكن عدوتي تلك التي مالت العربة على جنبها ميلاً شديداً وهي تنزل منها مستندة على كتف السائق، بل امرأة سمينة متشحة بالسواد ولها اهتمامات مجهولة مني، كما أن لها في تفاعلها مع الوجود همومها ومشكلاتها ولها عندنا قبل كل شيء مطلب، وإلا فما هذا السعي غير المنتظر في ضوء النهار وخلال البلد كله بيوتا وحقولا وألسنة!...

«كنت عدو زوجي لا عدوي» هكذا استعاد وجداني رنة صوتها.. عدوتي؟.. لنفتح على المصراعين بابنا لهذه المجهولة التي قصدتنا يوم احتاجت إلى الطب، وعندما فشلت في إقناع ابنتها بحماقة كبيرة مجهولة الباعث، وها هي بين بصر القرية وسمعها تأتينا وفي نفسها رجاء، أي رجاء... تفضلي فأبوابنا مفتوحة يا أم صفاء وقلوبنا!

وقالت وهي تملأ فراغ كشكنا الصغير:

ـ قل لعم آدم يعمل قهوة من بنه، فإني أسمع عنه من بعيد! كانت قد استروحت غريزتها الفطنة من استقبالي لها ما طرأ على موقفي النفسي إزاءها من تبدل سريع، فأحبت أن تعبر لي عن إدراكها بأن تعتبر نفسها «صاحبة بيت» وتطلب القهوة بنفسها... ومن جلستها المطمئنة بدا لي أن الراحة التي سرت في نفسها قد أسعدتها حقا:

ـ في بيتي، وفي الطريق إلى بيتك، قلت إني أقصدك لتطلب لي الدكتور شعبان على التليفون لاستشارته في حالة صفاء وتجديد أدويتها، ومع هذا التفسير فإني أخشى أن تكون هذه الزيارة موضع غضبك، لأني مثلك أعلم أنها ستكون حديث البلد!

ـ كلام الناس لا يغضبني ومرحبا بك!

شكرتني وسكتت لحظة قصيرة قبل أن تسألني:

ـ هل استنتجت سبب الزيارة؟

ـ قهوة عم آدم؟

فابتسمت قبل أن يعود إلى وجهها طابع الجد الذي جاءت به:

ـ القهوة على رأسي من فوق، لكن للزيارة سببها.. أنا عاتبة عليك ومن الواجب أن أحمل إليك عتابي بنفسي!

قلت لها باختصار:

ـ يا ست جليلة أنا لا أفهم معنى لعجلتك وإصرارك ما دامت البنت لا تقبل جاد المولى زوجا لها، فما وجه العتاب؟

تباشير وئام لا سجال عدوين!

في قسمات هذا الوجه البدين ملامح طيبة كانت خافية على موقفي المتصلب وراء متاريسي، وما أرى إلا أنها هي أيضا تكلم نفسها في لحظة السكون: «ما هو بمخبول، هذا الرجل النحيل، وما يسعه أن يؤذي إن لم ينفع، وكم أسأنا إليه وظلمناه!..»

هل تشرق الشمس في منتصف الليل وتدنو مني حتى ألمسها بأصابعي؟ أن نتفاهم أنا وجليلة وأبلغ من نفسها الغامضة مناطق أصيلة ونلتقي على ود وصداقة، فأعرف منطق تفكيرها وحدود شخصيتها الحقيقية وهموم قلبها وسر لهفتها، في أعقاب مقتل زوجها على تزويج ابنتها وسبب إصرارها على أن يكون الزوج هو صاحب الأرجوحة؟ هل هذا ممكن حقا؟ أن أعرف لماذا تحاول منذ موت هارون أن تكسب صداقتي، وأن يكون لها ما تريد؟ أن تمحى من بيننا كل الجبال المانعة، وتستأصل غابات القسوة وعدم الفهم والسخرية والشك؟ وهل تراني كنت ظالما عندما حكمت على هذا اللحم الجم بأنه لا تخفق فيه روح ولا تنير في قلبه شمس؟ وكيف أفتح قلبها إذا أنا لم أفتح لها قلبي؟ لم تعد «افتح يا سمسم»، هي كلمة السر، لا ولا السكين أشق به صدرها عن قلبها لأنظر ما فيه لأني عند ذاك لن أجد غير العروق الدموية الترابية وجوف الذبيحة والعضل والعصب، وإنما كلمة السر هي الفهم بالقلب... إن العطاء الكامل هو وحده القادر لو مس قبر ميت أن ينعش مادته ويعيد إليه الروح.. كلمة السر هي الحب!

ولم تكن غير لحظة مرت على سؤالي.. وكانت هي خلالها تنتظر انصراف الشيخ اللطيف الذي جاءنا بقهوته الطيبة وقدمها لنا في زهو مكتوم ونظرته تطرف في اتجاه الست الكبيرة،

وما أن رشفت من فنجانها قطرة من الرحيق المر المنعش حتى تكلمت:

ـ صفاء مثلك تقول إنها لا تفهم معنى للهفتي!

ـ صفاء معها الحق، ومن حقها الآن أن تفهم أشياء كثيرة! وربما كان لإرهاف النفس عند الصفاء قدرته على أن يجلو صدى الخامة الغفل ويكسو العظام لحما، وربما لم ترد نظرتها الطويلة البليغة أن تقول كل ما رحب به شعوري وهو يلقطه ويصوغ منه بداية خط جديد مستقيم.. هذا أنت تماما يا سيد حسن، كما كلمتني عن نفسك، وهذا هو حبك للوضوح الكامل.. تريد من كل شيء أن تشق قلبه وإنها منك لقسوة.. من القسوة أن تترك الالتواء في خطوط الغير يصدم إيمانك بالخطوط الواضحة المستقيمة إلى حد يرفعك إلى منصة القاضي الصارم الذي لا يمد يده قبل لسانه ولا يجعل مع عقله قلبه.. ارفض المنصة وانزل لتنحني على المجهول وتحتضنه حتى تتوقد بينكما شرارة، ولا تحاكمني ولا أحاكمك!.. خذ وأعط مع حائرة في مفرق دروب لعلها مسدودة.. وليكن قلبك حضنا لا قفص اتهام.. ولا تأكل من لحمك ودمك بل قدمهما عشاء للعطاشى والجياع.. هكذا كلمني في وجودها هذه المرة ضميري!

وكانت تتكلم وكأن صوتها تفتحت في نبراته المطمئنة طاقات:

ـ في زواجها كل شفائها، هكذا قال الدكتور صاحبك!

ـ الدكتور صاحبي يعرف أن للناس في بلدنا ألسنة كالمناشير، ولم يقل إن البنت يجب أن تتزوج قبل أربعين والدها، وإنما قال فيما أعلم إن صحتها تتحسن بعد الزواج، والدنيا لم تطر..

تنهدت جليلة قبل أن تقول في نبرة منكسرة:

ـ كنا سنقرأ الفاتحة في السر..

ـ وحشرتني مع ذلك دون أن تقولي لي السبب في حشرتي! «ليكن قبلك حضنا لا قفص اتهام» هكذا كانت تقول لي نظرتها الملحة بينما كان لسانها يتكلم:

ـ كانت صفاء تقول عنك دائما «أحسن رجل في البلد» وأن والدها مخطئ في عداوته لك، وكنت دائما أشعر من بعيد أن أي إنسان يستطيع أن يضع ثقته فيك وهو مطمئن.. وللرجل مركزه في الحكومة وأنا لا أفهم اعتراض البنت عليه!

ـ هو الحداد؟ وكلام الناس؟

«كلام الناس لا يغضبني ومرحبا بك» قالتها وابتسمت قبل أن تسأل بدورها:

ـ وما سر اعتراضك أنت على جاد المولى..؟

ـ وهل تعجبك أنت سفالته مع أهله..؟

ـ هل يضرب لهم الأرض فتطرح بطيخا؟ فئوسهم في سواعدهم فليعملوا ويأكلوا خبزهم ويشكروا!

تريثت لحظة لأختار ألفاظي وأجعل النية الحسنة فيها واضحة:

ـ أنت مع أهلك أكرم! ضربت في أرض هارون جذورك، ثم مددت بعضها بالعصير حتى بلغ طنطا!.. وطالما كنت في هذا مع الناس عليك، أما الآن فهو يبدو لي أجمل وأعدل من صنيع مفتش المراجيح بأمه وإخوته!

وطالت لحظة صامتة قبل أن ترفع عينيها:

ـ عندما جاء هارون إلى الدنيا كان من سلطان أبيه أن يطرح الرجال على الأرض في فناء الدوار ويضربهم على أقدامهم بالنبوت دون أن ترتفع من إنسان كلمة احتجاج، وعندما جئت أنت إلى الدنيا كان في انتظارك أب متعلم وبراح عزبة، فهل تعرف معنى أن تولد بنت في بيت كل ما فيه من نساء ورجال وبالغين وقصر يرقص محترفا ويبيع الأنس ليعيش؟

ـ الآن أعرف؟

ـ إن حياتي لم تكن سهلة!

وغابت عني لحظة في ذاتها الحميمة قبل أن تعود إلى الحاضر في وثبة:

ـ هل أرفضه؟

ـ هذا أحسن!

ـ أليس له مركزه في الحكومة؟!

ـ أليست صفاء أعز وأغلى؟

ـ تذكر أنك تكلم امرأة لم تفك الخط!

ـ أليس عندك خبر بالمرجيحة أيضا؟!

كَبَتَ لسانها دعابة نطقت بشائرها في عينيها. وجهدت رغم الابتسامة أن تكون جادة في كلامها:

ـ الزواج من بنت حلوة يعدل ميزان الرجل الذي لا يجد الخوخ فيرضى بشرابه!

آه يا ست! ينبغي لي دائما لا تنسي موازيني إنك في فورة الشباب كنت «عالمة» تطارح السامرين فنون الدعابة المكشوفة وتتقاذف معهم النكتة الجنسية عند اللزوم دون أن تطرف لها عين، فالبيت كله والأم والأخت والأخ كانت بضاعته الأنس، وآه من صهللة الليالي القديمة قبل سقوط قلعة هارون!.. تكلمي!.. أدخليني بيت نعيمة الآلاتية في شارع الشيخ الطنطاوي وأسمعيني الطبلة، واحكي لي عن ليالي شبابك وهواجس صباك وأحلام طفولتك.. كلميني عن أخيك وما فعل به زمانه وعن ماجدة أختك.. أين هي الآن؟.. هل

تزوجت هي الأخرى أم لا تزال تبيع الأنس وترقص؟.. آه يا ست! اسمحي لي أن أدخل لأول مرة تلك العتبات.. خذيني إلى هذا المجهول الذي كنت في أحكامي أدينك به والذي هو الآن في حضني!

لئن كان هذا هو ما أسماه هارون الخبل ـ الوثب من قمة إلى قمة ـ فما أسعدني مخبولا، وهات من قهوتك يا عم آدم! هات اسقنا، وما ألذها من قهوة!

أجل يا أم صفاء!، هو هذا! اصرفي جاد المولى إلى أراجيحه فما هو رجل صفاء وصوني بهاءها الهش عن ظلمانيته.. وقبلي عيونها العسلية وشعرها العجيب عندما تشرق في وجهها الحسن ابتسامة الرضى وأنت تزفين إليها بشرى الخلاص من مشروعك الهمجي الميت وخذي معك لها هذا الكتاب..

ـ لو كنت أفك الخط يا ناس!

قالت هذا جليلة عند الحنطور المنتظر وهي تقلب الكتاب الصغير بين يديها الكبيرتين هازئة من نفسها في بساطة، ثم سألتني:

ـ رواية؟

ـ أسوأ من هذا.. شعر!

ـ لا أعرفه!

ـ ستعرفه صفاء!

وما أن استدرت عائدا في ممشى الكشك بعد أن تحرك الحنطور حتى برزت وهيبة من مخبئها وفي عينيها نظرة عكرة:

ـ إنزاح الكابوس! كيف أطاقت البعد ثلاث ساعات عن سي مصطفى الغالي!..

وإذا بصرخة من عم آدم الشفاف تشلها في مكانها:

ـ إخرسي يا بنت! كابوس يكتم أنفاسك!

لكن حلقي المتشنج كان قد تلقى مضغة السم من كأس الغجرية، فاندفعت ـ اندفاعة «المخبول» المشهورة ـ وخطفت كل ثلاث درجات من سلم المرسم في وثبة، وفي حواسي أصداء من صوت عم آدم وهو يوبخ وهيبة ومن جرس الحنطور المبتعد.. ونداء «سعيدة» وهي تسأل في إلحاح ملهوف عن الخبر.. لا! لا تصعدي الآن يا أمي وانتظري على الأقل ساعة قبل أن تفتحي باب برجي!

ومرت الساعة.. الطويلة!

وعندما جاءت بغدائي المتأخر وجدتني أرسم، فوضعت الصينية التي تغطي صحافها فوطة مكوية بيضاء بالقرب من الحامل ودنت على عادتها تستكشف الألوان في خشوع، فرأت هيكلا

فظا آدمي الهيئة ممددا على أرض مخضرة في هموم الطين، وسرها قبل كل شيء أن أعصابي متوازنة، عندما سمعت صوتي الهادي، المفسر:

ـ هذا آدم قبل أن تسجد له الجنة!

الفصل العاشر

صافحت المعلم أمين ورحبت به فرمى نظرة مستخفة نحو مجموعة الكتب الجديدة التي كنت عند دخوله أتصفح عناوينها وأسماء مؤلفيها، وقال لي وهو يشير بيديه إلى الرفوف العالية المشحونة بالكتب حتى السقف:

ـ تأخذ فلوس المنجة ترميها في الورق؟!

بيتنا يعرفه من سنين، وهو يكسب الكثير بلا قراءة أو كتابة، فلم أجد معه حلا إلا الابتسامة:

ـ هي عشرة جنيهات على الأكثر، كل بضعة أشهر مرة!

فأخرج علبة السجائر من جيب جلبابه الواسع:

ـ عشرة جنيهات!.. كم عدد هذه الكتب؟

ـ هل أعرف!.. نحو العشرين.. كما ترى!

فأمسك كتابا منها في يده التي يحمل ظاهرها وشم أسد يشهر سيفا منبعج النصل ونظر في الطلاسم المنقوشة على جلدته:

ـ ومن دهاك بهذه المصيبة التي حسبتها عندما دخلت تبرعا إجباريا من النوع الذي تخصص في فرضه المأمور والشاطر! وضحكنا قبل أن أفسر له وجود هذه الكمية من الكتب في حوزتي:

ـ أبدا يا معلم.. أنا بإرادتي أرسلت عشرة جنيهات إلى صديق لي في القاهرة ليشتري لي بها كتبا، وقد وصل الطرد منذ دقائق قبل أن يؤنسنا حضورك..

ـ فأعاد النظر إلى الكتب قبل أن يقول:

ـ ما دامت غالية إلى هذا الحد فلابد أنها عظيمة!

ـ تسألني عن هذا بعد أن أقرأها!

ـ لا يا عم.. لو أني اتبعت طريقتك هذه في الشراء لخسرت الجلد والسقط.. لا أشتري محصولك من المنجة كل سنة إلا بعد فحص كامل لكل شجرة وما تبشر به، فأنا لا أدفع فلوسي في يانصيب أبدا.. ومن أين بالله عليك تضمن أن هذه الكتب ليس فيها المعطوب مع الجيد؟

صدقت يا عم أمين فإن بعض هذه الثمار يتحول عند القراءة إلى نكبة، وأنا أعرف أني في هذا التل من الكلمات سأجد الخبيث مع الطيب، بل لعلي واجد صنوفا من فن شاحب هزيل يصطنع واقعية جوفاء كقطعة فلين نخرة طافية على سطح الواقع الإنساني وعاجزة عن الغوص إلى نبض الحياة المحموم في صميم الحقيقة، لكنك لن تفهمي لو كلمتك في هذا.. أسفاه! أنت لطيف ولك نفس بسيطة صرت بها من أخيب التجار، لكن بيني وبينك هذا الحاجز المؤلم... لكم كان يسعدني أن أناقش معك مسائل من هذا النوع، لكن قم بنا إلى المنجة العظيمة لتفحص ما تبشر به كل شجرة وتحدد سعرك!..

ـ والقهوة السادة المعهودة؟

ـ عند عم آدم.. وسيأتيك بها وأنت تحسب مكسبك بالقرش والمليم ثم «يبوظ» منك الحساب!

خرجنا من البيت وعبرنا الجسر نحو حديقة المنجة الكبيرة، لكننا رأينا قبل أن نجتاز بوابتها المفتوحة طاهر السايس وهو مندفع نحونا من ناحية الإسطبل تتبعه كلبته «صدفة» الصغيرة، وهي تنبح ظله الجاري إلى جانبه على الأرض جاهدة أن تلحق به..

ـ مالك يا طاهر؟ حصل شيء؟

كان جزع الولد ظاهرا في اضطراب وجهه الصبياني الحسن وفي حزن عينيه الحائرتين أمام نظراتي المتسائلة..

ـ تكلم! ماذا حدث؟

كان أهون عليه أن يسقط ميتا من أن يكشف لي النبأ الذي يعرف كم سيجرح قلبي بكلمة واحدة، ففرت الدموع من عيني الولد الطيب وتعثرت في حلقه الكلمة!

ـ «سرحان»!

نفضت قلبي انتفاضة موجعة وانداحت في أعماقي فاجعة..

مريض؟.. سرحان ما له يا طاهر؟

فنطق في وجه الولد عذاب لا يوصف، ودفعنا عجزه عن الكلام في اتجاه الإسطبل فتبعتنا «صدفة» وهي تنبح ذيل جلباب الحاج أمين.. وكنت أعرف قبل أن أدخل مربط «سرحان» أني سأجده جثة وأن اليوم من أيامي الشقية.. كان قلبي قد عرف..

في تمام عافيته تركته مساء أمس بعد أن مرت يدي على رقبته الناعمة الدافئة وأطعمته السكر من كفي وقبلت على عادتي جبينه المنور، تركته جميلا في شبابه الفائر وتكوينه الفتيّ، أما الآن فسوف أركع عند جثته الشاهقة البياض وتسيل نفسي حزنا.. هو ذا رفيق جولات الظلام الصامتة في براح الأرض وتحت النجوم، هو ذا الصديق الذي لا يعوض نائما على جنبه وعيناه الكبيرتان شاخصتان مثل فصين كبيرين من الزجاج ورقبته أمامه ممطوطة.. شيء جميل ميت!

وانحنيت باكي النفس لأرد خصلة الشعر المطروحة على التراب إلى الجبين الذكي الظريف، وسمعت في اللحظة نفسها صرخة المعلم أمين قريبة من كتفي:

ـ هذا الحصان مسموم!

ورأيت أمام بصري الزائغ يد طاهر السمراء المرتجفة مشيرة إلى بقعة في بطن «سرحان» مخضرة اللون ضاربة إلى الزرقة، ما تكاد العين تلمح وجودها حتى تتبين أنها ليست الوحيدة من نوعها في الجسم الأبيض الهامد...

وارتفع عويل السائس الصغير:

ـ يا للفجيعة يا سرحان.. كنت أكلمك فتفهم كلماتي!.. وابن الكلب الذي فعل هذا سأقتله!..

ومد المعلم يده الكبيرة فمر بها على كتف الولد في حنان أبوي:

ـ صل على النبي يا بني، نريد أن نفهم الحكاية..

واعتدلت ملتفتا إلى الغلام الحزين وضمت يداي كتفيه وأرحت حزنه في حزني.

ـ ألم تشعر في الليل بأي حركة يا طاهر؟

ـ لا.. قمت من نومي فوجدته هكذا.. راح!

ـ سنعرف الفاعل بعد قليل.. اليوم!..

ـ وسأقتله وأشرب من دمه..

وظهر بالباب سواد ثوب وهيبة:

ـ حسرة على الحصان الحلو!

أمسك المعلم بذراعي وخرجنا من الإسطبل إلى ظل التوتة وهو يسألني:

ـ تعرف الفاعل؟

ـ سنعرفه!

ـ أما حكاية!..

الحكاية يا معلم لم يحدث لها مثيل في حياتي وحياة أبي في أرضنا التي لم يقتلع فيها زرع ولا مسها حريق ولا ماتت فيها الحياة مسمومة... لكنني كنت أكثر انتباها إلى الغجرية التي تبعتنا عندما مشينا دون أن تترفق بالولد المسكين!

ـ عملوها في عز نومك يا خم النوم!..

وذعرت المرأة عندما وجدتني ألتفت إليها صارخا في وجهها:

ـ غوري من هنا!

وقال لي الحاج أمين في شهامة صادقة:

ـ هل أنت محتاج أن أقول لك إن رجالي العتاة الذين يلهفون لوري الفاكهة في دقائق كلهم تحت أمرك؟

لم يكن عندي كلام فعدنا في موكب صامت إلى البيت، وتلقت «سعيدة» حزن السايس بحنانها، وخلونا في المكتبة ومعنا في هذه المرة سؤال ضيفي الذي لم يجد له جوابا. من عدوي؟

وأحسست بوجود عم آدم في النافذة قبل أن أسمع صوته:

ـ العمدة في مصر، نكتب بلاغا لشيخ البلد..

قلت في هدوء للوجه الظاهر في النافذة بكل ما فيه من شعور بالغضب:

ـ لا يا عم آدم..

ـ لن نكتب بلاغا؟

ـ لن نفعل من هذا شيئا... بلاغ ضد من؟

فانحنى على قاعدة النافذة حتى صار وجهه معنا في الغرفة:

ـ ضد زقزوق النسوان شيخ القتلة!..

هاجت في نفسي لوحة قديمة كما تفور من باطن النفس فجأة رواسب منسية، جليلة متألقة في ثوب مدندش بالترتر وخرج النجف من ذيمه إلى صدره، وبين يديها دف كبير، وستائر مسدلة تتلقى الظل الفاحش لراقص متهتك في يديه الصاجات وحول خصره حزام، والخصر مخلوع والقفا الطويل متماوج مع حركة الجسم كله، وكأن دفوفا تضرب في رأسي، ومشاهد خاطفة تومض في مخي لتختفي في الحال، فهذه الغجرية تحت لذعات كرباج في يدي يعتصر منها الحقائق التي تخفيها، وهذا الكتاب في يد صفاء، وهذا الظل الراقص على ستار هو «سي مصطفى الغالي» الذي تزأر عند رؤيته عواصف في أعماق محبوسة، كأنها مردة مهتاجة في ظلمة قمقم، ويعلو دوى الدفوف إلى ذروة يتحشرج عندها متشنجا وينهار يتضاءل حتى يتلاشى، وإذ يسكت الضجيج أحس بالدم في عروقي وهو يهجع من فورانه الهجومي، فيخجلني الكرباج عند ذاك خجلا يتفصد منه بالعرق جسمي.. لا يا عم آدم، لا يا سعيدة، لا يا طاهر، لا.. إن كوز ذرة مسموم لن يستعبدنا وإن سرحان لن يعود.. اعمل لنا قهوة يا عم آدم قبل أن تصحب المعلم إلى المنجة ليتفرج عليها ويخرج لنا فلوسه التي ننتظرها من السنة للسنة.. وتعال يا طاهر ندفن صديقنا الذي كان يحبك كما تحبه والذي أوجعه هو أيضا وهو يحتضر أنه لن يراك، تعال نقل للناس إن الحمى هي التي أخذته منا ونحفر له قبرا عميقا عند جدار الإسطبل، ونقف عنده وأيدينا مشتبكة في خشوع..

وجاءت هدأة العصر بقهوة آدم إلى الكشك بعد أن انصرف التاجر ودفنا ميتنا وأتيحت لي فرصة أسجل فيها دفتر يومياتي نص بلاغ عجيب تصورته بين يدي نسناسنا الصغير الشيخ محمد المبروك: «بناء على طلبي أنا حسن عبد البديع عند جسر الترعة تحركي أيتها العصا الآدمية المذعنة لكل أمر وافتلي حبل المشنقة، فلقد مات مسموما من كان وجوده جميلا، وإني أتهم مصطفى الذي لا أعرف اسم أبيه حتى أكتبه في البلاغ ـ ونجده مقيما طرف حرم المرحوم هارون عبد الجبار ـ لأنه وحده في هذا العب كله يستطيع أن يواقع هذه الجريمة البشعة في حق الحياة الجميلة، فاقبض على هذه الروح المظلمة يا شيخ محمد واحتفظ باعترافه ـ إلى أن تفرغه على مكتب ضابط المنطقة ـ في قلب تفاحة آدم الكبيرة الراقصة في رقبتك الدجاجية الموقرة...»

الفصل الحادي عشر

وفي الكشك جاءنا طاهر من تحت توتة الإسطبل بوهيبة التي أحست من فورها بما في جو جلستنا من توتر، وقلت لها بعد أن شربنا القهوة هي وأنا وطاهر وسعيدة وآدم:

ـ شوفي لي البخت يا وهيبة!

وناولتها فنجاني «مكفيا» في طبقه فأدركت من النظرة والصوت أني أطلب كل ما عندها وأريد منها أن تفك عقدة لسانها الذي قالت عنه يوم جاءتنا إنها تدفع له فلوس على سكوته وعلى كلامه، وراقبتها وهي تلملم ذكاءها وتسيطر عليه، متظاهرة بانتظار التشكل الأخير لتنوة البن في قاع الفنجان، ثم أخذت تدير الفنجان في كفها مغرقة فيه نظراتها، وفي السكون تلاقت أعيننا نحن الآخرين، ولكأن وجه الصبي قد صار كله حاسة واحدة كبيرة تنتظر الكلمات التي تنفرج عنها هذه الشفاه الداكنة السمرة، الغليظة المطبقة.. واختلست الغجرية نظرة في اتجاهي بطرف عينها النائمة:

ـ ما بعد الخسارة غير المكسب!..

تنفس آدم في سعلة خشنة ونهر المرأة:

ـ مكر الغجر وكذبهم له أوانه، أما الآن، إن كنت لم تفهمي فقولي لنا من قاتل الحصان إن كنت ترينه في الفنجان!

تظاهرت المرأة بالغوص مرة أخرى في بحور الطلاسم قبل أن تتكلم:

ـ أرى رجلا نحيفا.. يستتر بظل حائط.. حائط من الطوب الأحمر.. وفي يده شيء..

فهمس طاهر مناجيا نفسه وهو يغمض عينيه البريئتين:

ـ كوز الذرة!..

وقالت سعيدة دون أن تخفي ضيقها وخيبة أملها:

ـ قولي لنا عن الشيء الذي في يده!

ـ خيارة كبيرة، أو.. كوز ذرة، الله أعلم!..

وناجى طاهر نفسه مرة أخرى:

ـ هذا هو الفاعل بعينه! وقعته سوداء!

وسعل عم آدم ودنا من المرأة في غيظ:

ـ صوري لنا الرجل حتى نعرفه من وصفه!

ـ نحيف يا عم آدم، لكن وجهه إلى الناحية الأخرى! فعاد السايس الصغير يهمس في ركنه:

ـ إن الذي في بالي ليس نحيفا!.. عجيبة!

واشتبكت سعيدة مع المرأة في احتدام:

ـ ماذا يلبس؟

ـ قميص وسروال..

ـ وعلى رأسه؟

ـ طاقية.. وحافي.. لا بالطويل ولا بالقصير!

لم يسع عم آدم عند هذه الأخيرة أن يكتم غضبه:

ـ وهل في رقبته النحيفة تفاحة آدم بحجم الليمونة؟.. لم يبق إلا أن تقولي لنا إن الفاعل هو المبارك شيخ البلد!

ولقطت نظرتي في خطفة من عيني وهيبة، المائلتين نحوي في استعطاف، إصرارها على أن لا نتكلم أمام أحد غيري ورغبتها في أن أفهم ذلك وأختصر حرجها وأهيئ لها فرصة الانفراد بي، فأخذت الفنجان من يدها قائلا لها:

ـ أنت في غجر الدنيا أخيب قارئة للبخت، قومي البسي الحلق الكبير والخلخال ولمعي فص الخاتم واسبقيني إلى المرسم فإني أريد أن أعمل لك صورة نسهر فيها طوال الليل، وما أن يطلع الفجر حتى تكون عندنا وهيبتان!

فما صدقت أن وثبت، وفهم عم آدم وفهمت سعيدة، لكن الولد لم يزل حائرا في كلام الفنجان:

ـ عجيبة!.. الذي في بالي ليس نحيفا ولا يخرج بالسروال والطاقية أبدا!..

وكان ينتفض، صورة للغضب رائعة!

وتركت الولد في حضن أمنا سعيدة وخلوت بنفسي في المكتبة مؤجلا لقاء المرسم مع وهيبة إلى ما بعد ساعة الغروب، فإن الكلام يسهل عليها في ضوء المصباح الخافت، ولا اتهام بغير دليل، وليس مصطفى وحده القادر عندنا على دس السم في القوت، فلماذا أشارت إليه كل الأصابع متهمة إياه بقتل حصاني الجميل؟

«سي مصطفى الغالي» على من؟

على جليلة التي رآها بالأمس ساعية إلى بيتي في الحنطور فاحتدم الغل في ظلمة نفسه؟

وما حدود سلطانه هنالك في الأرض ووراء ستائر البيت نفسه؟ ولماذا لا تريد وهيبة أن تتكلم؟

ستتكلم، ستتكلم الليلة ـ وسيكون الكرباج الذي ينطقها هو الفن، سترى نفسها في المرسم خالدة الوجود فينفك الطلسم الغجري عن شفتيها وتغرس النصل في قلبي حتى مقبض السكين.. وأمام كحل الجفون ووشم الذقن وذبول النفس ومأساة الوجه كل سترى نفسها في مرآة الفن عظيمة وأبدية وجميلة، فتنصهر وتنطق وتتطهر..

ـ يا سيد حسن!.. يا سيد حسن!..

لقد ألفت على السنين أن يقطع على خلواتي في المكتبة رأس عم آدم الذي يبزغ في الشباك فجأة معلنا عن ظهوره بسعلة خشنة أو شطرة موال أرغولية، لكن النقلة في هذه المرة كانت عنيفة في انتزاعي من أمام اللوحة المنصوبة في خيالي بوضوح كأنه هو وحده الواقع الكلي، أوقد صدم شتات فكري بصيحته المتفجرة:

ـ الولد طاهر.. جرى على البلد في جنون.. ومعه سكين!..

الفصل الثاني عشر

دفس محروس يده في عبه فخرجت بسكين يلمع نصله الطويل في حمرة الشمس الغاربة:

ـ السلاح أهه!

ـ وأين الولد؟

كنت قد أرسلت خفير البيت وراء السايس الصغير ليعود به من اندفاعته، فغاب ساعة ثم عاد ليقف أمامي محرجا لا يكاد يجد ردا على سؤالي القلق..

ـ تكلم يا محروس.. أين طاهر؟

فقال في اضطراب وهو يناولني السكين:

ـ الولد الآن هادي.. وفي أمان!

ـ ولماذا لم يعد معك؟ أين تركته؟

فهرش في ركن شاربه قبل أن يتلعثم:

ـ في.. جنينة المفتش؟!

ـ جنينة المفتش؟!

هذا ما حصل.. خفير الزراعية قابلني في الطريق وقال لي إن جاد المولى بك أرسله ليطمئن على الولد.. وأين الولد يا عبد الباسط قال إن البك المفتش ناداه عندما لاحظ هياجه وهو يعبر الطريق أمام بيته وسأله عن وجهته، وظل يلاطفه حتى أدخله في الجنينة وأخذ منه السكين.. ولماذا لم تحضره معك يا عبد الباسط، قال إن الولد مبسوط بالمرجيحة وأن البك المفتش سقاه الشربات.. وعاد معي عبد الباسط إلى بيت المفتش فوجدت طاهر على المرجيحة. تعال يا طاهر، إنما الولد لبد في المرجيحة.. والمفتش قال لي سلم لي على حسن بك وقل له الولد يأخذ حظه من المرجيحة وبعدها يرسله مع عبد الباسط ليسلمه لنا يدا بيد...

ـ قال لك هذا فسمعت الكلام يا فالح وتركت الولد في المرجيحة وجئت بسلامتك!.. اجر يا فالح، اجر إلى الإسطبل فأسرج لي الحصان أدهم.. في الحال!

وما أن مرت لحظات حتى كان أدهم يخطف الطريق خطفا قبل أن تقع الأرجوحة مع ظلمة الليل بين فكي التيس فيحاول في شراهة البهيم المعهودة عن التيوس أن يقضمها

ويلتهمها بما عليها، وكأنما يقول لي الحصان وهو يندفع معي نحو الهدف سابحا في الغروب: عزاء أيها الصديق! وتأمل!.. إنك واجد في أدهم بعض العوض، فإني أعلم أنك حزين على صاحبي سرحان!..

وفي سحابة من غبار توقفت العاصفة بباب المفتش وقفزت من السرج إلى الباب إلى ركن الأرجوحة التي وجدناها ناطقة في حركاتها القوية بسرور راكبها، وغير بعيد منها وعند مائدة وأكواب وزجاجة شربات وطبق فيه بقايا عنب وتفاحة، طالعتني ابتسامة ذليلة يرتعش في قلبها أنف أفطس مفعم بالحرج والمهانة.. وأخذت حركة الأرجوحة تهدأ بينما كنت أعاني لقاء يدي بيد جاد المولى وأستهين بترحابه الذي تريد المبالغة فيه أن تستر ذلة الشعور بالخزي، ورفضت الجلوس حتى سكنت حركة المرجيحة وهبط طاهر إلى الأرض وهو لا يعرف رجليه من رأسه..

ـ انبسطت؟ والآن هل تعرف الجري؟ أريد أن تكون بعد عشر دقائق قد أسلمت نفسك لمحروس، فانطلق كالحمامة، ولا تتلفت، أتسمعني؟

فرفع الولد ذيل ثوبه البريء ووضعه بين أسنانه واندفع من الباب كالسهم، ولا مانع الآن من الجلوس، أما أني نورتك وشرفتك فهذا مالا أقبلك حكما فيه، وأما الشربات فأنا لا أشربه، وما أريد إلا أن أجبر عينيك على أن تلتقيا بعيني ونتكلم قليلا...

ـ يعملها الصغار ويقع فيها الكبار!.. الحمد لله جاءت على خير وأؤكد لسيادتكم أننا سنكتم الموضوع..

حاولت أن أصيد نظرة من عينيه الخرزيتين فراغت النظرة ووراء عدستي النظارة السميكتين، وسألته في استهانة واضحة بما يقول:

ـ أي موضوع؟

ـ لن يعرف أحد إن شاء الله أن الولد المجنون كان يريد بسكينه أحد رجال المرحوم هارون.. ولا أدري من أين أتاه هذا التصور الخاطئ.. إنه يعتقد أن الجدع مصطفى مسئول عن موت حصانكم. عقل عيال!..

عقل العيال الذي يعجبك يا حضرة المفتش!.. قالتها ابتسامتي الهازئة قبل أن أقنصه في شبكتي:

ـ يعني لولا مرجيحتك كان الولد صور لنا قتيلا!

ـ من فضل الله أني رأيته وعرفت من منظره أنه مهتاج يقصد شرا.. هذا ولد عصبي ومحتاج إلى تربية!..

ـ ولا تنس إلى جانب المرجيحة مفعول الشربات والتفاح! فانبعج المفتش في جلسته:

ـ الخبرة الطويلة في تنشئة الأولاد عليها عمل يا حسن بك... زمان كانوا يضربون الأولاد في المدارس.. والآن هناك الفن التربوي الحديث.. السكالوجيا كما يقال.. التفاهم

بالحسنى وبعلم النفس وبالرغبة بدلا من الرهبة..

ـ اجعل من الولد صديقا، تكسبه!

ـ تمام!.. بهذا تقضي أصول السكالوجيا التربوية..

ـ والأولاد أحباب الله.

ـ تمام!.. تمام يا حسن بك.. أحباب الله..

ـ زينة الحياة الدنيا!

ـ أي نعم!.. ربنا يوعدنا ويوعدك بالنعيم والذرية الصالحة!.. هو الآن في قلب الشبكة تماما، أي نعم، لكن هات عينيك الجبانتين يا رجل وأنت تكلمنى ودعك من هذه الحشرة الوهمية التي تطاردها منشتك.. لكن لا فائدة؟.. وعلى قد نفخته في جولاته التفتيشية وسوء أدبه مع المدرسين، هو الآن ضئيل وغبي ومزنوق زنقة فأر غير نظيف في علبة من زجاج!

قلت له وأنا أنخسه بنظرتي:

ـ دعوة مستجابة بإذن الله!

فصفع مقعد الكرسي الخالي بيننا بمنشته متظاهرا بأن الحشرة اللعينة صارت في متناول المنشة:

ـ المهم هو أن تظهر لكل منا العروس المناسبة!.. لم نعد شبابا يا حسن بك!.. العروس المناسبة هي ما يلزم في الحقيقة.. وعلى الله التوفيق!...

عيناك يا رجل!.. ألا تقوى على رفعهما!.. وأي لذة وأي منفعة في هذه الدنيا تساوي قدرتك على أن ترفع عينيك في وجه من يخاطبك وترشق نظرتك عند الاقتضاء في حبة عينه!

هو هذا يا حضرة المفتش.. لابد أن تكون العروس مناسبة.. لا يتزوج الغراب حمامة ولا الصقر كروانة!!

ولم أمهله بل أضفت في لهجة من تذكر فجأة شيئا كان قد نسيه:

حرم المرحوم هارون أبلغتني في زيارتها لي أنها لا تفكر في الوقت الحاضر في زواج ابنتها!

تقلصت عند ركن فمه عضلة تبقت لها ثمالة من كرامة، واختلج وراء النظارة جفناه:

ـ حسنا فعلت، فإن ميتها لم يبرد بعد في قبره...

وباخت الجلسة في تلك اللحظة ولم أعد أنا ولا صاحب البيت حريصين على بقائي أكثر مما بقيت، فوقفت بعد قليل ومددت يدي لرجل متوتر النفس غير الذي استقبلني، أرذل من أن يداري أدبه غيظه:

ـ دعني أكرر لك الشكر على عودة السايس من مغامرته الخطرة سالما!!

فأخذها هي الأخرى في جنبه وهو يوصلني إلى باب الحديقة... وانتظرت سحنته المكفهرة حتى صهل حصاني وهو يتلقاني، وما أن لوحت بيدي حتى اختفى ذلك الواقف ببابه عن بصري.. ولم يلبث أن اختفى من ذهني أيضا، فلقد تبينت على مهل شيئا عجيبا في خطوة الحصان القصيرة المستأنية، إذ كان أدهم في رشاقته الراقصة يحاول أن يقلد مشية سرحان المتطاوسة!

ملت على العنق العصبي فلاعبت شعره الحريري وقلت في الأذن المرهفة كلمات شكري التي رنحت رأسه وأوقدت في خطفة خلفية من ركن عينه اليمنى شرارة طرب، واندمجنا في عودتنا إلى بيتنا.. ما أجمل الحصان صديقا!

وما أن طمأنتني سعيدة على طاهر حتى سألتها:

ـ ووهيبة؟

ـ وهيبة مسها زهو منذ علمت أنك سترسم لها صورة، وهي في انتظارك في المرسم...

ـ هل تعشت؟

ـ أكلت فطيرا مع طاهر وعم آدم...

صعدت وفي نفسي هذا المعنى: الأصفر والأسود والأزرق وتوليفاتها هي الألوان المناسبة لهذه اللوحة...

وعندما دخلت وجدتها نائمة على الأرض وكأنها في رقادها أطول قامة، وكل ما يبدو من وجهها في النور الخافت جبين ضيق وأسنان قوية....

ومرت ساعتان...

وها هي وهيبة، كتلة من سواد وبقع خضر وصفر، مستلقية على جنبها بعرض اللوحة، مقطوعة من شجرة ومستباحة، وأنفاس الليل تنفحني عبر النافذة بعطر المساء.. وما أن فرغت الفرشاة في يدي من لمسات هنا وهنا ولمسة أخيرة هناك حتى لفظت أعماق المرأة أنينا شاكيا وانقلبت على ظهرها وهي تثني إحدى ركبتيها فينحسر سواد الثوب عن ساق سمراء سجينة في فضة الخلخال الغليظة، وتنفست مرة أخرى في أنين طويل مسترمم قبل أن تهجع في غيبوبتها، هي التي مشت ثلاثين سنة في الدنيا دون أن تعرف راحة، فألقيت بالفرشاة وانحنيت فسحبت الثوب في رفق على ساقها التي لا عيب فيها... ثم جلست بين الأصل والصورة وأشعلت سيجارة واسترخى وجداني في لحظة طويلة من سكينة النفس المشعشة واسترخى الزمن معي...

وألقيت ستارا من قماش على اللوحة قبل أن يعترض صوتي أنفاس المرأة النائمة، وفي خفوت مؤتلف مع ضوء المصباح الرقيق، بنداء خفيف ومتكرر باسمها، فكان أول ما بدر منها دلالة الحياة أن تململ وضع ركبتها وانطبقت شفتاها على أسنانها ثم تقلبت في الأنين كما

لو كانت اليقظة عذابا فوق قدرتها... لكن النداء رغم رحمته ظل يلح عليها حتى انتزعها من قاع البئر في النهاية ودفعها إلى الجلوس في تهويمة تعسة، وكأن ظلها على الجدار تعس مثلها...

لكن نظرتها وهي تتثاءب، كلماتها الممضوغة كانت تمتحن وجهي بفراسة غجرية... وكأن من الممكن عندها أن يشتهيها في الليل هذا الرجل المستوحد، لكن بحرا من الصفاء طالعها في عيني ووأد في الحال وثبة الأنثى فيها... وما أعجب عين المرأة!.. أي رجل هذا وما معنى عفته وامرأته ماتت من سنين؟!...

ومرت ساعة، وما كان بالجديد عليّ أن أتصور أن لمصطفى يدا في مقتل هارون أو أن تكون لجليلة صلة بالجريمة، لكن اسم «صفاء» جرى على لسان الغجرية فكهربني وهي تروي لي تفسيرا جديدا للصدمة النفسية التي اعتلت منها صحتها منذ صباها، فلم يكن ما كشفته لها المصادفة في إحدى حجرات البيت بين أبيها وإحدى الخادمات كما يشاع، بل بين مصطفى وأمها...

وصرفت الغجرية بعد أن شبعت ذهولا أمام صورتها، وغصت في أعماق المحنة التي صدمت طهارة الصبية منذ سنوات فضاعت شكل شبابها وهزت مع أعصابها كل إيمانها بالحياة وقتلت فيها الطفلة التي كانت قبلها بثانية واحدة تتوثب في أرجاء البيت هناءً ومرحا... دخلت على صفاء برجها المنيع بنفس الاندماج الجواني الذي أدخلني قبور الموتى ليوقظني معهم لميتة ثانية، وحضنت عمرها المعذب كله في قلبي... وركبت في الخيال حصاني أدهم وخطفتها من مستنقع عطن تتقلب في طينه أفاع وحيتان وتحوم فوق وحشته طيور جارحة معقوفة المناقير، وخبأتها في صدري وطار بنا مركبنا المجنح إلى الأعالي...

وانتظرت طلوع النهار؟

الفصل الثالث عشر

الفن الذي أحمله إليك في هذا الصباح بسيط لكن القلب المتفتح يفهم بساطته ويقبل الهدية، جئتك في هذه المرة بلوحات من رسمي، لأزهار وطيور وأطفال وعباقرة أحبهم وأحب لك أن تعرفيهم بالعقل وبالقلب.. وعند لوحة لقمة شامخة من قمم الإنسانية في أعلى مراتبها إشراقا ونضجا وعصا الفنان السحرية مرفوعة في يده، استطاعت صفاء رغم صرامة الوجه ورهبة الجبين العاصف تحت الشعر الثائر أن تلمس في عبقرية بتهوفن حقيقتها الأساسية..

ـ كأن في عينيه قلب طفل!!..

قلت لها في سرور بملاحظتها النابعة من فطرتها السليمة:

ـ ما أجمل ما قلت!.. هذا صحيح.. في قلب كل فنان حقيقي طفل نقي.. ولولا بقاء شعلة الطفولة في قلب بتهوفن لما كان لنا أبدا هذا الموسيقي الجبار ولا عاشت لنا موسيقاه.

ترددت لحظة، ثم قالت في خجل:

ـ أهو موسيقي؟

قلت لها وعيناي تنهلان صفاء العسل من نظرتها النقية:

ـ وستسمعين موسيقاه ويأتي يوم يربطك بها في حب كبير!

ـ ما اسمه مرة أخرى؟

ـ بتهوفن..

ـ بتهوفن.. بتهوفن.. إن نطقي للأسماء الأوروبية التي تقابلني في الروايات سيئ جدا.. لكني لن أخطئ في هذا الاسم أبدا. بتهوفن.. ستكلمني عنه كثيرا، أليس كذلك؟

وغطت وجهها فجأة بيديها الرقيقتين وقالت في همسة:

ـ ما أكبر جهلي!!

كنا في ذلك الصباح من آخر الصيف عند خميلة صغيرة تحت نافذتها في الركن الجميل الوحيد في ذلك البيت الجهم، وكانت يدها الصغيرة هي التي زرعت هذه الواحة النضرة في صحراء هارون وسقت وقطفت، وكان شذا الركن مثلها نضاحا بالصفاء وعذبا ورقيقا، فتناولت اليد اللطيفة في دفء يدي وضغطت عليها في حنان:

ـ أنت نقية يا صفاء ولك قلب غير جاهل، والمستقبل أمامك مفتوح للمعرفة وللحياة..

ـ المستقبل؟

وسكتت لحظة وهي مطرقة قبل أن تواجهني بصفاء عيونها العسلية:

ـ أتعرف أنني أواجه هذه الكلمة لأول مرة في حياتي.. المستقبل.. المستقبل.. هل هذا ممكن حقا؟.. أن يكون هناك مستقبل؟ وضحكت وهي تنظر في يدها الآمنة في يدي:

ـ ما أعجب ما أقول لك!.. قبل أن أعرفك كنت أسمعهم هنا يتكلمون عن «مجنون الترعة الغربية» فأتخيل لك صورة مخيفة وأرتعد وأنا أتصور ما يمكن أن يحدث لي لو أني قابلتك في الليل وحدي! والآن ما أسهل الكلام معك، وانظر إلى يدي في يدك، مطمئنة.. كل هذا في صيف واحد!

في صيف واحد قتل أبوها ولم ينكشف قاتله، واقتحم «مجنون الترعة» عالمها المغلق وفي يده كتب وصور وأنغام ومصباح يلقي بنوره الكشاف على امتداد طريق مفتوح على المستقبل.. وإذا كانت لا تكاد تصدق أن أمها كانت منذ أيام تسعى إلى زواجها من رجل بغيض، فهي اليوم أشد عجزا عن أن تفهم هذا التحول الغريب في سلوك أمها التي أذنت لها بهذه الخلوة وهي تميل على شعرها فتدفن فيه قبلة ناطقة بحنان الأمومة.. وكانت حتى الأمس القريب لا تقرأ غير مغامرات الفرسان السخيفة وحيل اللصوص، واليوم تتكلم عن رابعة العدوية وغاندي وياسر بن عمار وسيد درويش وتنطق بأسماء بتهوفن وطاغور.

هل هي في حلم لا تصدقه أم أنها تصحو للواقع الجديد من حلم طويل عاشت فيه عمرها كله بانعزاله وصدماته وانحصاره؟

هل هذا ممكن حقا، أن يكون هناك مستقبل؟

وعندما يحاول كل منا أن يربط هذا المستقبل بالماضي فلن يجد غير الصدمات.. ستجد هي نفسها مصلوبة من الروع والتقزز عند باب يكشف بشاعة عظمى ويصرع في قلبها الغض معنى الأمومة الطاهرة، وأجد أنا صراع الإنسان الحقيقي الذي في قلبي وسط متاهات عمري، وظلمة أعماق القبور التي عشت فيها مع ساكنيها من الأموات، وجنون الليالي وأنين العزلة.

وأحسست بالثورة على نفسي، إذ ينحصر فكري وأنا في هذه الصحبة الشابة المشرقة، مدى لحظة، في أعماق قبر نزلت إليه ذات يوم لأتلقى على ذراعي جثة امرأة كانت أليفة مائدتي وفراشي وأوسدها الأرض التي ستهضمها وتطوي صفحتها القصيرة في كتاب حياتي.

وفي هذه اللحظة جاءني صوت «صفاء» شفافا ومشفقا بهذا السؤال كأنه حصاد صراع بين الخجل والفضول:

ـ يقال إنك كنت سعيدا مع زوجتك؟

ـ فاطمة؟

والتقت عيوننا في ومضة عميقة وخاطفة، ثم غضت من بصرها وتشاغلت بنفض غبار وهمي عن إطار لوحة بتهوفن. واستردت من يدي يدها المنتفضة.

ـ أتعرفين ما الذي يجعل الرجل سعيدا في حياته مع امرأة؟

فكرت قليلا قبل أن تقول دون أن ترفع بصرها عن اللوحة:

ـ أن يجد عندها راحته؟

ـ التجاوب والفهم والانسجام بالروح وبالفكر، ولم يكن لي من ذلك شيء مع فاطمة.. كانت غلطة العمر.

ـ لم يكن بينكما حب؟

ـ لا أرى على هذا الإطار ذرة واحدة من التراب فانظري إليّ ونحن نتكلم ولا تنكمشي وراء أهدابك هذه الجميلة.. إننا نتكلم عن الحياة والحب فما ينبغي أن يكون بك حياء ولا وجل!.. ذات يوم، بعد عودتي من الوظيفة إلى الأرض، زارني عمدة ميت عساف الذي كان صديقا لأبي وقال لي إنه يريد أن لا ينقطع الود بيننا بعد وفاة صديقه، وتبادلنا الزيارات، وأكلت عنده الأوزي المشوي وأكل عندي الرومي المحمر، وأفدت من خبرته الزراعية كما أفاده نفوذي في المركز.. وفي إحدى مقابلاتنا قال لي إن وصية من وصايا الأجداد تنصح الرجل العاقل أن يخطب لابنته ولا يخطب لابنه، وإنه يريد أن يزوجني ابنته.. وكانت فاطمة طيبة وجميلة وكنت عصبيا ومستوحدا، ولعلي أردت أن أملأ بوجودها بعض الفراغ الكبير في بيتي وفي نفسي.. أكلت من يدها أطعمة شهية، وأعجبت بصوتها الهامس وطاعتها قبل أن أفتح عيني وقلبي على الهوة الفادحة التي تفصل بيننا والتي رأت حكمة الموت أن تثب بي فوقها ذات ليلة رهيبة عشتها على أطراف أعصابي ولا يزال في أعماقي أثر من أنين فاطمة في سوادها.. وإذا كان الزواج خيمة منصوبة في عراء الحياة المترامي، فإن العلاقة الجسدية فيه ليست أكثر من أحد أوتادها التي تمسكها في وجه الرياح، أما خيمتي أنا وفاطمة فلم يكن لها غير هذا الوتد، فلو لم يقوضها الموت بعد عشرة أشهر لأطارتها الرياح في الهواء وتعرت حياتنا.. هل تفهمين كلامي يا صفاء؟

وفي لحظة الصمت وثب إلى المسرح الخلفي في ذهني، على غير انتظار ظل جاد المولى وهو ينصب خيمته متلمظا كما ينسج عنكبوت خيوط شبكته وهو يحلم بفريسة دسمة وسهلة يقلبها على الوجهين، وإذا بي أسمع من الصوت الشفاف الذي يناجيني هذه الزفرة المهموسة التي تؤكد لي أن فيضها الروحاني منسجم مع فيضي الروحاني في وحدة مسكرة:

ـ من فضل الله أن أمي لم تنصب لي الخيمة التي كانت في مخها! والتقت عيوننا وهي تقول لي في طمأنينة ويقين:

ـ ما كنت أنت لتسمح بهذا!..

وبعد سكتة أخرى عاد صفاء عينيها يهرب من نظرتي:

ـ رأيي في العلاقة الجسدية أنها شيء حقير ودنيء.

ارتسمت في خيالي صورة شنيعة، ومن خلال باب دفعته يد طفلة تكشفت دناءة حيوانية، عارية صادمة، على حين كانت يدا صفاء ترتفعان فتستران وجهها كله، وكأن الاعتراف يخرج من بين الأصابع الرقيقة كما ينبجس الماء من نبع عميق:

ـ رأيت بعيني.. رأيت.. قبل أن أتم سنتي العاشرة رأيت الدناءة الحقيرة الدنسة.. الموت أرحم.. أمي أمي.. إني إلى الآن لا أدري كيف لم أمت.. أمي أمي.. إن الموت أرحم.

وتدفق الينبوع دموعا بين الأصابع المرتعشة.

وقبل أن أعرفك كان عذابي الذي لا عذاب فوقه هو أن النجوم هكذا تتهاوى والأرض تميد من عهد جدتي نعيمة، كما لو كانت السلالة كلها ملعونة!

نبضنا واحد يا بنية، ولو كنا في كشك اللبلاب عندي لأدخلتك في حضني وضمك قلبي، أما هنا فأمسكي عليك نفسك واسمعي هذا الصوت الهادئ الذي ارتفع فجأة من داخل البيت في طراوة مطمئنة.

ـ صفاء.. يا صفاء!.. هاتي حسن بك وتعالي إلى الفراندة البحرية لنشرب القهوة معا!

اعتنقت عيوننا على عهد، ومرت أزمان من صمت عميق قبل أن تحمل أنينها المكبوت وأحمل لوحاتي لتنهض وندور حول زاوية البيت القريبة، وما أن مشينا خطوات حتى همست وهي تمد يدها وقد ارتعشت في وجهها ابتسامة تصلب وغفران:

هاتي أنت حملك كله!. هاتي يدك وهاتي العسل وهاتي المستقبل.. ودعك من الجدة نعيمة والخالة ماجدة وكل السلالة الطنطاوية. فرب ضاربة بالدف موصولة القلب بسماء الحق وما يدري بها لائم، أما هارون فقد حملت عنك عبئه باسم الموت الحكيم رصاصتان من يد مجهولة، وأما عبء جليلة فإني كما حمل المصلوب صليبه أحمله على كتفي حتى أكتم في التراب أنفاسه وأواري سوأته!

وتركتني صفاء مع جليلة في الشرفة وانسحبت بعد أن ردت على رغبة أمها في مشاهدة الصور بقولها:

ـ سترينها بعد قليل معلقة على جدران حجرتي.

كانت أم صفاء ملء كنبة أسيوطية في ركن الشرفة التي تعتلي ركنها البحري صينية القلل المتوجة بأعواد النعناع الخضراء على حين تتلاقى أسراب النمل الأسود الكبير بين حنايا بلاطها المنكسر وفي شقوق سورها المهدم، وأمامها فناجين مكفية في أطباق وكنكة كبيرة معتلية موقد السبرتو فوق صينية كبيرة من النحاس مرفوعة على نضد متهالك من الخشب المطعم بالصدف، وحول رقبتها المتينة، بين سواد الفستان وسواد الطرحة، منديل أسود ملفوف في حبكة وعقدته كبيرة منسدلة الأطراف على كتفها اليمنى.

ـ قهوة سادة كما تحبها، والبن غامق لكن أين هو من قهوة عم آدم!

تناولت الفنجان من يدها وكل منا يخطف من وجه الآخر نظرة مستشفة، والجو بيننا مشحون بكهرباء خفية، ووقعت لحظة سكون مثقل بالمعاني.

ـ فنجان آخر؟

مددت يدي لها بالفنجان، وبينما كانت تصب لي القهوة ووجهانا قريبان أحدهما من الآخر، طعنت سكينتها الظاهرة طعنة خفيفة مستطلعة، كمن يقدح شرارة بين موجب وسالب:

ـ يا أم صفاء بيني وبينك أبواب موصدة، بعض مفاتيحها معي والبعض الآخر عندك!

ارتعدت اليد التي تصب القهوة وغاب الرد حتى استقرت الكنكة في الصينية وبانت الابتسامة العصبية في الوجه المضطرب:

ـ أظن أن يدي كانت أول من سلم مفتاحا وفتح بابا!

ـ هذا حق، لكن المفاتيح كثيرة.

ـ مفتاحك الكبير يلقف كل المفاتيح الصغيرة!!

جمعت كل قواي الروحية في كلمات:

ـ من كان سعيه بالحب ليس بالقاضي ولا الحاكم، لكن الحب يا أم صفاء يطلب النور.. والنور مفتاحي!

ونظرت في أعماق عينيها فرأيت الاعتراف ناضجا ينتظر القطاف، فتناولت يدها لأول مرة في يدي:

ـ إذا فتحت لك قلبي وجدت صفاء، فماذا أنا أجد لو أنك فتحت لي قلبك؟

مرت لحظة عجيبة جمدت فيها جمود صنم ضخم، وجمد الزمن نفسه خلالها كأنه يستجمع قواه كلها كي يعتدل حول محوره، ثم نفضها زلزال من بكاء تفجرت مرارته دفعة واحدة وفاضت بأثقالها، فسمعت صرير محور الزمن وهو يستأنف دورانه، وتفتحت الأبواب واندفق النور من العتبات.. آه يا أمي سعيدة! بعد هذا الزلزال لن تكون بي الليلة حاجة إلى دوائك المنوم، وإنما كل حاجتي إلى الموسيقا.. ستقرئين فرحة النصر في عيني عند عودتي فتقربين مني أسطواناتي الحبيبة وتذهبين في سكون لتنعمي بنوم القلوب المطمئنة.

وتعال يا بتهوفن، أيها الصديق!

تعال بهذه الموسيقا العميقة كالسر الكامن في الروح الإنساني.. تعال بالهدوء السماوي الذي ييسر لي الوصول إلى توازني النفسي الداخلي وأنا أندمج بالكون في موسيقاك المفعمة بالوعي الكوني.

تعال نسبح في عروق الكون!

تعال!.. تعال فالإنسان في موسيقاك كما هو في وجداني عظيم وطيب وجميل ومزدهر بالصفاء والرحمة والفرح والحب.

الفصل الرابع عشر

في الظلام، والليل الريفي متجاوب بأناشيد الحياة المنسجمة مشيت في السكة الضيقة التي دهستها أقدام الأجيال في شط ترعة أولاد مرعي لتختصر الطريق إلى الجميزات العجوزة العملاقة التي تكاد تتوسط المسافة بين بيتي والحد القبلي للقرية، والتي كنت أقصدها وحدي وفي مسدسي جهاز كاتم للصوت وتسع رصاصات هي خط الدفاع الأخير الواجب ضد صفاقة الشر لو كشر عن نابه وهو محصور ومعتصر، وهدفي رجل قابع في تلك الكتلة المرتفعة الخربة من الطوب والتراب ونثار عظام الموتى، في قلب جبانة الأجداد القديمة المهجورة...

وما عرفت في حياتي كلها كهذه اللحظة موقفا كاد ينعدم فيه الخلاف بين باطني وظاهري، فقد كانت إرادتي ماثلة كلها في رغبتي في ترويض الواقع وتشكيله، لا في الانكماش أمام صدمة الارتطام بما فيه من عبث وضياع وتفاهة، وكانت ساعة طويلة قد مرت منذ جاءني مندور خفير جنينة البرتقال القبلية بخبر الرجل في الجبانة، وبفكرة ثابتة عن هدفه الإجرامي، فقد لمح بالمصادفة بصيص السيجارة وهو يتقد ويخبو مع أنفاس الرجل الكامن في الظلمة، وسعى على حذر فاقتحم قبة الجميز الغامضة وزحف تحتها حتى بلغ من دنوه من الرجل الرابض أنه تأكد من شخصه بل سمع تنفسه، ثم عاد مؤمنا بأن ذلك المختبئ في الجبانة المهجورة ينتظر نومنا ليتسلق جدار الإسطبل ويدس السم لحصاني أدهم كما دسه بالأمس لحصاني سرحان، وبأن علينا أن لا ننام الليل حتى نأخذ بثأر سرحان...

وكان رد الفعل الأول لهذا الخبر في نفسي هو أني ذكرت عم آدم ووددت لو كان ثالثنا في هذا المؤتمر الصغير الذي شهدته مكتبتي، لكن هذه الرغبة لم تعش أكثر من ثوان خايلتني خلالها وجوه كثيرة، أبي وشعبان وسعيدة وصفاء وجليلة، وتبدل فيها ميزان شعوري وسمعت في أعماقي جلجلة ذلك النداء القديم المكبوت الذي يدعوني إلى أن أنتفض من استرخائي وأصدم ما لا ترضاه شريعتي.. وما أن انتزعت من الشاب اليقظ الوفيّ قسما بأن لا يعرف الخبر أحد غيري حتى سألني في لهفة:

ـ هل «ألبد» في الإسطبل من الآن؟

ـ لا يا مندور، ما عليك إلا أن تعود إلى الجنينة وتنتظر في الخص دون أن يبدو منك ما يدل على يقظتك..

ـ هل ننبه على الولد طاهر حتى لا يغلبه النوم؟

ـ اترك لي هذه الناحية.. مع السلامة..

نظر الشاب الفلاح إلى عيني وتردد لحظة قبل أن يقول لي في حب ودود.

ـ أنتظر في الخص؟.. أليس من المصلحة أن أكون على علم بما تنوي أن تفعل؟

لا شيء إلا أن أزورك الليلة في الخص.. بعد ساعة..

ـ ما أسهل إعداد كمين عند الإسطبل نقفشه فيه متلبسا بجرمه وتريح البلد كله من أذاه!

لا داعي لذلك في الحقيقة، وإذا احتجت إليك فإن صوتي سيكون قريبا منك!

وكانت نفسي وأنا أدنو من الجبانة القديمة مفعمة بالصدق إلى درجة لم يكن لي معها بد أن أكون وحدي في طريقي، وكان صوت أبي يتردد في وجداني بكلماته التي قالها لي في يوم بعيد: ليس المهم أن تقتل الثعبان، بل أن تقتل في نفسك الخوف منه!.. ولقد كان له أيضا في حياته ثعبانه ومعركته، وكان له يوم لا ينساه أيقظه فيه أبوه مع مشرق الشمس ليشرف على هدم قنطرة صغيرة كانت تمر من تحتها قناة الساقية في بطن جسر بحر شبين، ثم أهملت زمنا قبل أن يفكر أبوه في إعادة بنائها بالطوب الأحمر، وعندما بلغ مكان القنطرة وجد اثنين من رجال أبيه الشبان يضربان قوالب الطوب الأخضر القديمة الهشة بفأسيهما بعد أن كشطا التراب عن هيكل القنطرة المحدب، على حين كان رجل ثالث يجتث ببلطته من مدخل القنطرة المواجه لمدار الساقية أجمة شوكية هزيلة استفحلت من نباتات طفيلية وتشابكت عبر الفوهة فروعها، ولم تكن غير دقائق قضاها عند هذا المشهد الهادئ وهو واقف في استرخاء اليقظة المبكرة، قبل أن يسمع فجأة من الرجل حامل البلطة صرخة فظيعة أطلقها وهو يقفز إلى الوراء في رعب، وما أن اعتدل الرجلان في مكانهما على الجسر وألقيا النظر حتى رأى أبي رأسا أسود شنيعا بارزا من الفوهة ومفرطحا كرغيف صغير تشقه فتحة مستعرضة كريهة يندلع منها لسان عصبي ذو شعبتين خفافتين بالحركة، وثمة بريق أصفر صارخ بالغيظ والاهتياج تنفثه عينان ضيقتان كأشعة من بغضاء ماحقة، ومرت لحظة سكون بالغة العمق قبل أن تأتي من فوق الجسر صيحة متحشرجة: «ابعد يا عبد البديع بك ليأذيك الحنش».. وكان في أول الشباب ولذات الحياة كلها عنده، رياضة وصيد وقراءة وجري وراء البنات، ولم تكن حياته قد عرضت موقفا واحدا يمتحن معدنه، فدنياه سهلة ودربه معبد، فكان أول خاطر احتل ذهنه هو أن هؤلاء الفلاحين الثلاثة قلوبهم جامدة وعندهم القدرة على الصمود بعد زوال وهلة الروع الأول ولن يدهشهم أن يبتعد عنهم «البك الصغير» حتى يسحقوا رأس الثعبان ويفرموا لحمه بفئوسهم.. لكنه ما يدري إلا والبلطة في يده، قد اختطفها من الرجل المرتد الخائف ورفعها بيديه كلتيهما في مواجهة البريق الفسفوري في عيني الأفعوان المحنق، لكن حواسه المركزة كلها في حركة العنق الذي ظهر من أعماق القنطرة المعتمة وكأنه في غلظة رقبة كلب فقد سجلت في الوقت نفسه صيحات الرجال الذين تواثبوا من حوله على بعد قليل، وفي نفس كل منهم صراع ومغالبة.. وأمام شناعة النظرة المفترسة واللسان المزدوج والعنق «المدملك» السميك

علم والبلطة في يده أنه يواجه أفعوانا ضخما من النوع النادر الذي تعقد لذكره ندوات السمر ويسجله تاريخ القرية، وهو يذكر أنه هو الآخر كلم الرجال وإن كان لا يذكر ما قاله، ولعله كان يطلب منهم التنحي ويؤكد لهم أنه عازم على الدخول في المعركة إلى نهايتها.. وبلغ من إرهاق نفسه أثناء المعركة أن حركات الكر والفر المتبادلة بين عنق الأفعوان ومدار البلطة في الهواء كانت تتم في شبه رقصة مخيفة يصدق فيها الحافز الغريزي وحده.. وكان الأفعوان يجمد ويظل رأسه المرفوع ناطقا بالكبرياء والتحفز قبل أن تثب رقبته إلى الأمام في خطفة لولبية لئيمة يتغير اتجاهها في كل مرة، وكانت البلطة هي الأخرى، في اتساق كامل مع حركات الذراعين وقفزات القدمين، تداول بين الهجوم والدفاع.. وظهرت مسافة أخرى من الجسم الأسود الغليظ الذي بدا كأنه لا آخر لطوله الكامن في بطن القنطرة، وانتصبت هذه المسافة هي الأخرى عارضة بطنها الملساء المقززة حتى صار الرأس الخطير في مستوى الحزام، ولمس حد البلطة في إحدى الضربات الموفقة منبت العنق من تحت الفك لمسة هينة فكاد الرأس البشع في مثل ومض البرق يلمس بانتقامه بطن مهاجمه.. ومع أن أصوات الرجال بلغته في تلك اللحظة كما لو كانت أوهاما في خيال، إلا أن وجوده كله كان متربصا بالوحش الذي أخذ يتلوى في زنقة القنطرة قبل أن ينقض بكل نقمته فيضرب في هجمات متتابعة مجنونة، وعند ذلك هوت البلطة بضربات سريعة في اللحم الحي لم تتوقف في هذه المرة حتى بدأ الهمود يهدئ من تشنجات الوحش وانتفاضاته.. وما يدري من ضم كتفيه بذراعه ولا من أخذ البلطة من يده ولكنه وجد نفسه بعد هنيهة جالسا في المصلى الصغيرة عند جدار الساقية والرجال يفردون الحنش الميت أمامه على الأرض ويقيسون طوله بالشبر.. أما نفسه فوجدها مليئة بشيء غير زهو رجاله الفخورين بجرأته في الصمود للأفعوان وقتله، هو ذلك الهناء الطيب العميق بشعوره بأنه إنما قتل في نفسه الخوف!..

ها هو، وهذا ظهره إلى الناحية التي تسللت منها إلى مكمنه، وما تبدي الظلمة إن كان بين يديه سلاح، وما أرى من شبحه إلا استرخاء الضجعة المطمئنة وقوس الكتف وامتداد القفا المستند إلى راحة اليد.. ها هو السم وطباخه تحت رحمتي.. كل شيء الآن في قدرتي وفي ميزاني، أستطيع أن أطلق على قمة هذا القفا رصاصة واحدة من رصاصاتي التسع الصامتة ثم أعلقه بتكة سرواله في الجميزة، وأستطيع في وثبة صاعقة تفك أوصاله أن ألوي ذراعه وأملي عليه إرادتي مالكا لقياده، وأستطيع أن أرجف قلبه لا بشيء إلا اسمه أناديه به في هذا السكون المظلم الذي يرى نفسه فيه وحيدا.

ـ مصطفى!!

وكنت أعلم أن الرجفة القاسية التي ستزلزل قلبه عند المفاجأة ستبعثه في انتفاضة شرسة واقفا في واجهتي وملتجئًا إلى سلاحه إن كان معه سلاح غير السم في نابه، فالتحمت قدماي بالأرض وتعلق بصري بانتفاضته الحيوانية وأمره صوتي في حزم:

ـ سلاحك على الأرض يا ولد، ففي يدي مسدس!

سمعت صوت سقوط جسم ثقيل على الأرض، فأمرته مرة أخرى.

ـ ارفسها، إني أريدها!

وعندما داست قدمي البندقية ذات الماسورة القصيرة التي دفعتها نحوي ركلة من حذاء الرجل المذهول، وضعت مسدسي في جيبي وأنا أقول له بنفس الصوت الهادئ:

ـ اجلس في مكانك ولا تحاول أن تتحرك لأني في هذه الحالة وحدها سأقتلك!

فانكسر طوله وتكوم شبحه أمامي وهو يزفر في صوت مريض يرجفه غضب مكتوم.

ـ ماذا تريد مني؟ أنا لم أدخل أرضك!

ألا يكفيك أرض هارون دخلتها من الباب الواسع!

فاضطرب صوته لحظات قبل أن تتماسك زمجرته في عبارة مفهومة:

ـ ليس لك عندي ما تحاسبني عليه!

واستشفت يقظتي له اتجاه فكره ومداه، فعالجته وهو يتململ في جلسته الصعبة بإنذار حاسم:

بل اثبت لحساب طويل، أما براعتي في إصابة الهدف ولو على السمع فهي أشهر من أن أصدع بها دماغ السيادة، وأما مسدسي فلا صوت له! وأما حياتك وموتك الليلة فرهن إرادتي، لأنني لم أقرر بعد هل أعفو عنك إلى النهاية أم أعدمك في سكون ولا من شاف ولا من دري...

فكان صوته وهو يحاول الصمود مشروخا:

ـ ماذا تريد مني؟ هل تمنع الناس من فك حصرهم في الخلاء؟

ـ وهل فك حصر حضرتك من الأهمية بحيث يلزمك الخروج له مسافة كيلو مترين وأنت مسلح؟!

ـ كنت مالكا لمصيره ومصيري وأنا واقف على مسافة قليلة من كتلته المتكومة في الظلام أمامي ـ وسلاحه تحت قدمي وسلاحي في جيبي ـ وقوتي في سكينة نفسي وحدها وفي اتحادي الصادق بالمصير، وبدأت اعتصاره باستفزازه.

ـ ماذا أريد منك يا سي مصطفى الغالي، أريد أن تحكي لي عن رئيفة!

ـ ما لها؟

ـ إحك لي عنها، وعن هارون!...

ومضت عيناه في الظلام، فهل يمط رقبته الطويلة فجأة كما فعل ثعبان أبي ويمد بوزه السام فيلدغني؟

ـ هات البندقية يا حسن بك ودعني أذهب لحالي!

ـ قل لي ولا تخف عني: أيكما أنت ورئيفة ألذ رقصا؟!

لم يتكلم لكنه كثعبان مزنوق تلوى على نفسه محتدما بالغل حتى كدت أسمع غليان الشر تحت عظام جمجمته، فناولته وخزة أخرى:

ـ وأين كانت تهوي صفعات هارون عندما لا تعجبه رئيفة، على صدغك أم على قفاك السلطاني؟

وكأن صوته نفسه كان يسح بالعرق وهو يقول في مسكنة:

ـ مالك عليّ يمين! ما منع هارون من قتلك من زمن إلا توسلاتي!..

ـ ولولاك إذن لكنت الآن في عداد الأموات.. من أهل الأريحية، أنت، يا رجل رئيفة.. وانظر الآن جحودى للفضل ونكراني للجميل، فأنا أبلغك أنك مفصول من خدمة الست جليلة وممنوع منذ هذه اللحظة من دخول بيتها أو الظهور في أرضها.. أما ما لك هناك من ملابس أو امرأة أو صرة نقود أو صرة سم فسوف يلحق بك في أول قطار صباحي إلى حيث تترك لي عنوانك الجديد! ما قولك؟

وعلت في الظلمة شهقته، ثم ضرب الأرض أمامه بكفيه في حنق ذليل:

ـ ماذا تقول؟!.. ممنوع؟!.. مفصول؟!.. الست جليلة نفسها لحد ساعة المغرب لم تقل لي من ذلك شيئا.. من قال هذا؟!.. مفصول؟!.. أنا..؟

ـ أنت وحياة رئيفة؟

ومن يفصلني؟

ـ أنا!

ـ بأي حق؟

ـ أطردك من البلد كله، إلا إذا اخترت رصاصة صامتة في قفاك المكرم وحفرة تواريك في الظلام كأي كلب ميت وتطمس أثرك من الدنيا...

فراحت كفاه تدقان الأرض في ثورة مقهورة وعيناه تلمعان وتنطفئان:

ـ لا الأرض أرضك ولا البيت بيتك... هذا مستحيل! مستحيل.. ما أنا بجاد المولى حتى تطردني من بيت الست فانطرد!... بأي حق؟ بأي حق؟

وفي تلك اللحظة المرهفة كان في وسعي أن أحتوي المشهد كله في ذاتي وأستشعر مع المغلوب على أمره حرقة إحساس بالخسارة الكاملة التي يواجهها إذا مال إلى الإذعان حرصا على حياته ولم يقبل التحدي... شقاء العمر كله.. كل تدبير وإحكام للخطة وكل تهتك ومذلة وكل جريمة السيطرة على الأرملة وعلى أرضها في غيبة الابن النائي، وربما الزواج منها في نهاية الأمر وإعلان السيادة الشرعية.. المكان العالي في مخدع السيد المتجبر الذي طالما أذله، وفي مكانه المرموق، والأرض والمال.. كل ما بناه بأحلامه وصبره وهوانه

وتدبيره حتى حان قطافه ينهدم ويتداعى ما لم يثب للفتك وثبة الأرقم، وإذا به كما توقعت يندلع نحوي كلسان من لهب، فأسقطتني الصدمة على ركبتي والتحم جسمانا في الظلام.. وفي نفسي الشاعرة بجزيئات الصراع الدقيقة توهج اليقين بأن أصابعه تبحث عن البندقية ودفعني الحافز الغريزي إلى معصمه فلويته حتى تقلب الرجل متلويا في حضني وهو يئن من الألم، وما أن تحكمت في ذراعه اليمنى الملوية وراءه في قبضتي حتى دفست أنفه في التراب وأنا أركل البندقية بقدمي بعيدا عن مكاننا، واقترب وجهي من ذلك القفا حتى توضحت لي مساحته الفسيحة المغرية باستخدام الكف، لكني انتظرت حتى هدأ لهاثي بعض الهدوء قبل أن أسأله في قفاه.

ـ أنت قاتل حصاني؟

ـ يا رجل! تكاد ذراعي تنكسر!...

ـ أنت قاتل الحصان؟

قلتها وأنا أضغط التواء ذراعه حتى خلتني أسمع طقطقة العظمة، فتأوه واعترف:

ـ وضعت له السم؟

ـ أجل...

ـ بنفسك؟

ـ بنفسي!...

ـ وهارون؟

ـ ذراعي يا رجل!... أنت تكسر ذراعي..

ـ وهارون يا مصطفى؟ هارون؟

ـ أجل! أجل!...

ـ أنت قاتله؟

ـ أنا!.. أنا!.. في عرضك.. حاضر.. حاضر.. سأهجر البلد.. الليلة.. في الحال.. حتى البندقية يمكنك أن تبعث بها غدا مع رئيفة!.. أو تحتفظ بها لنفسك!... كما تريد.. حاضر.. ذراعي يا سعادة البك، أنا في عرضك!

ـ والليلة؟ من كان موعودا بأن يكون قتيلك الليلة؟

ـ لا أحد والله!..

ـ تكلم يا بغل رئيفة، تكلم!.. من؟

ـ حصانك العزيز الثاني!

ـ هات ورقة السم!

قلتها وأنا أنتزعها بيدي الخالية من جيب صدريته كما لو كنت عليما بمكانها، وصرخ هو في هوان:

ـ أليس في هذا كفاية؟.. ما فائدتك من كسر ذراعي؟..

ـ اسمع! من مصلحتك قبل أن أعطيك حريتك أن تعلم أن رجالي يحرسون بيت الست جليلة منذ الساعة، وأنك ما لم تهاجر مقتول إن لم يكن بحبل المشنقة فبيدٍ تسمع كلامي دون أن تكشفني.. وأين تجيئُك رئيفة غدا بالملابس والنقود والبندقية؟

ـ في طنطا يا سعادة البك.. طنطا..

ـ في أي مصيبة؟

ـ رئيفة تعرف الحاج فراج تاجر الكُسب في البندر.. وبيته فوق الدكان

ـ انهض واجر إلى طنطا جريا!

حتى البندقية لم يفكر في رفعها من الأرض عندما أطلقت سراحه وكل ما فعله هو أنه أطلق سبابا قذرا وهو يدعك ذراعه ويجري لتلقفه الظلمات!

والتقطت البندقية..

ومشيت في طمأنينة مع أناشيد الحياة المنسجمة المتجاوبة في الليل نحو خص مندور، حيث نوقد نارا نحرق فيها ورقة السم ونشرب الشاي ونغني المواويل.

الفصل الخامس عشر

مرت الساعات بطيئة هادئة، وعندما وقفت السيارة السوداء أمام بابنا بعد ظهر اليوم التالي أدركت أن سعيدة التي سمعت في الصباح من حديث لقاء الجبانة ما ملأ قلبها الكبير خوفا على حياتي هي التي استدعت بالتليفون صديقي الدكتور شعبان، وبقدر ما سرتني رؤيته أسعدني أن أجد معه وجها طيبا لم أره من مدة، فعانقت الصديق ورحبت بالرجل الذي جاء معه:

ـ أهلا بمن كان والدي حبيب والده ومن هو حبيبي!

وقال صديقي شعبان ونحن ندخل البيت:

قابلت المعلم أمام دكان القماش في شبين الكوم وأنا أبحث لأمي سعيدة عن طرحة بدلا من التي نسيتها في القاهرة وجئنا معا بالطرحة وبأشواقنا.

كان يعرف مكان المعلم عندي ومكان والده عند أبي في زمانهما الذي ولى، ويعلم أن والده كان من كشافي الذخر المكنوز في إنسان الأرض لغد بعيد جميل وعظيم، ولم يكن شيخ طريقة بالمعنى السائد في القرى بل نموذجا حيا يسعى على قدمين، من الطيبين الصادقين مع أنفسهم ومع الناس، وقد ورث عنه أبو العهد رقة وصفاء عينيه ومعدنه ومهنته، فهو بناء متواضع يندب لتعلية سور أو ترميم مقبرة، فما أن يظهر في مكان يراد أن ترتفع فيه طوبة فوق طوبة، بجلبابه القديم، وحذائه المرقع وعمته الصغيرة ـ شريط من الشاش النظيف حول طاقية ـ حتى تشع من صفائه الناطق في وجهه ونظرته وكلماته القليلة وكل وجوده البسيط الطيب شرارة تفجر من النفوس خير ما فيها، أما حياته الباطنية الغنية فإن ما بيننا من أنس روحاني هو وحده الذي سمح لي بأن أرفع عنها الستر وألقي نظرات صديقة على أبعادها الحقيقة...

وما أن اطمأن بنا المقام في الشرفة البحرية بعد أن فرغ شعبان من عناق سعيدة واكتفى من همساتها حتى احتلت حكاية مصطفى صدر الحديث وتمطت فيه تفصيلاتها واحتمالاتها عارية مجسمة.

وقال الطبيب وهو يضحك:

ـ الحق أني فخور بعلاجي المتواضع..! منذ شهرين لم تكن تنام الليل من اضطراب أعصابك، أما الآن فها هي مخالب الذئب محطمة في يدك!..

فابتسم المعلم أبو العهد وقال للطبيب ونظرته في عيني صافية معبرة:

ـ إن لحظة صدق مع النفس يا سيدي الدكتور لهي معجزة الإنسان الحقيقية!

قلت: إنها تغير الطريق وتهد الجبل وتصنع المستحيل.. إنني الآن أعرف!

واستراح قلب صديقي عندما علم مني أن جليلة قد بعثت إليّ عند الظهر رسولا أنبأني أن مصطفى لم يظهر ثم عاد إليها من عندي ببشرى فراره المذعور أمام اعترافه بجرائمه، لكن اعتراضا متوجسا نهض فجأة في نفسه:

ـ ولماذا أطلقته؟ وقع في يدك وانتزعت منه الاعتراف فلماذا لم تضع يدك في قفاه وتدفعه أمامك إلى دوار العمدة مكبلا باعترافه؟

لمحت وراء هذا التوجس وحي أمي سعيدة لكن أبو العهد نظر في عيني نظرة كالابتسامة الرقيقة، وهو يقول في هدوئه المطمئن:

ـ بل هذا أحسن، فإن ما سيفعله هو أن يشنق نفسه بنفسه! قالت سعيدة وقد ظهرت في الباب:

ـ قد يفكر في الانتقام.. ألم يكن الأصوب أن تأخذه الحكومة في الحال لتشنقه بمعرفتها؟

فأشرقت النظرة المطمئنة في عيني المعلم وهو يجيبها عني:

ـ لكل شيخ طريقة، وطريقة شيخك هي المثلى!

فضحكت لأول مرة منذ الصباح، ووضعت يدها الكبيرة على كتفي:

ـ قلب الأم دواما خائف، لكن الحق معك يا معلم، فشيخي دائما على حق.

وسألت شعبان عما يجب أن يأكل في العشاء من صنع يديها، ثم انصرفت وهي أهدأ نفسا، فامتدح أبو العهد فنجان القهوة السادة الذي شربه قبل أن يقول للدكتور في ضحكه:

ـ لعل الأستاذ حسن نسي تاريخ هذه القصة، لكن لمصطفى هذا من بين كل الوجوه التي خلقها الله وجها هو الوحيد الذي خانني فيه ضبطي لنفسي فصفعته...

ـ أنت يا معلم؟

ـ حدث أن دعاني هارون عند الظهر إلى بيته، وكنا في مستهل موسم من مواسم الانتخابات، فذهبت وفي ظني أني مدعو لإصلاح زريبة أو إقامة حائط، لكني تبينت معالم وليمة تجهز في همة وسخاء ووجدت جمعا من الأعيان يتوسطهم ضابط النقطة.. اللهم اجعله خيرا.. وقيل لي: إن لي عند السيد هارون هدية! ونادى هارون تابعه الرذل وأودع في أذنه همسة لم تلبث أن تكشفت عن قفطان بخطوط زاهية وشال من الكشمير وقال هارون: سألناك الفاتحة يا سي الشيخ:.. وقال الضابط: نقرأها الآن معا على بركة الله.. فتركتهم يقرأون الفاتحة وأنا أتأمل وجوههم كأنها سرائر مكشوفة، فلما انتهوا سألتهم فجأة: وأين الجبة وشال العمة والجزمة أيها السادة؟.. فكان ضابط النقطة الذي لم يتبين ما في السؤال من سخرية هو أسبقهم إلى الوعد: أما هذه فأمانة عندي، والبك المأمور نفسه هو الذي

سيتكفل بنفقتها، وكل طلبات الشيخ على راسنا من فوق، فما نطمع في غير رضاه وأن تكون معنا أنفاسه! فسألتهم: أنفاسي؟ فقيل لي: لقد عزم هارون بك على ترشيح نفسه في الانتخابات ضد الزعفراني.. فقلت لهم: الذي أعرفه أن المرشح يلزمه للانتصار على منافسيه أصوات لا أنفاس.. وقيل لي في الحال ما من أحد في البلد يجهل قدر أنفاسي ودعواتي، وإن لي عند أتباعي لكلمة، وما أكثرهم.. كل نفس من أنفاس الشيخ بصوت!.. أما هارون بك فهو خير من يقدر الخدمات ويلقى الإحسان بالإحسان.. فقلت لهم. إن أنا إلا طريد أزهر وبناء فقير يأكل خبزه ويحمد الله على الستر، والله يعلم، والله يعلم أني لست شيخا ولا أتباع لي، وما بيني وبين الناس إلا المحبة.. فقال هارون نفسه وهو يجاهد غضبته أن تتوضح في وجهه أو في صوته: ما هذا الكلام يا أبو العهد، نعرف كلنا أن حولك تجمعا وأن في مستطاعك أن تسيطر على سبعين صوتا أو ثمانين لو أردت.. فأجبته وأنا أمتحن المسافة بيني وبين البوابة: إن الذين يحبونني ليسوا أصواتا يا سيدي البك بل أرواح متحابة في الله وحرة.. وهنا انبرى لي الفتى ضابط النقطة في سطوة رجل الإدارة: أليست أسماؤهم في كشوف الاقتراع العام؟... فألقمته الرد في الحال: الكشوف عندكم يا حضرة الضابط، وعندك علمهم لا عندي. فارتفع صوته في وجهي. هل تحسبنا مغفلين؟ كم دفع الزعفراني؟.. وكانت رائحة الشواء تعبق نسيم الظهر الفاتر مقبلة من فرن كبير في أقصى الفناء عندما قلت لهم: نعرف كلنا أن للزعفراني هو الآخر قدرته على أن يشتري بماله ما يشاء من شيلان وقفاطين، لكنه لم يدعني بعد إلى بيته، ولا أعرف إن كان سيدعوني.. كنتم ولكم الشكر سباقين إلى الفضل.. فقال الضابط وهو يكظم غيظه ما استطاع: يا معلم خذ القفطان والشال وفكر على مهلك فإن كان الزعفراني يعرض الثلاثين أو الأربعين فإن هارون بك يتفاهم بالمئات، والرجل يشتري الرجل!.. وما أن قالها حتى وقفت مستأذنا في الانصراف، واندفع رجل الإدارة إلى الهدية فأعاد لفها في ورقتها الكبيرة وحاول أن يدفسها في صدري في رجاء أخير: فكر على مهلك!.. لكني دفعت يده في هدوء قائلا له:

وما للبنائين وشيلان الكشمير التي يمسخها تراب الهدد ويحيلها إلى ممسحة فرن!.. فقال أحد الأعيان إن النبي قبل الهدية فالتفت إليه قائلا إنه لا سلطان لعبد فقير مثلي على أرواح الناس، فكيف أقبل ثمنا لما لا أملك، وهنا ارتفعت أول صيحة آمرة من حلق الضابط الشاب الذي ابتلع عند هذا الحد من الكلام كل أدبه وصبره وحسن حيلته: بلاش فلسفة فارغة! هذا سلوك لن يرضى عنه البك المأمور أبدا، وهارون بك يجب أن ينجح... هذه هي إرادة الحكومة... وفي جبل الطور الآن أناس كثيرون من أصحاب الأدمغة الناشفة.. فكر على مهلك.. فوضعت اللفافة بين يديه وأنا أعلنها صريحة هادئة: لا شال ولا قفطان، ولا هارون ولا زعفراني، أما غضب البك المأمور فالله خير حافظاً!.. وتبعني الولد مصطفى الكلب ليزلزل قلبي بحكايات مخيفة عن الآلام والإهانات التي أعرض لها نفسي، فما كان مني والله يغفر لي، إلا أن رفعت يدي وأهويت بها على وجهه، ثم نفضتها في الهواء كما لو كنت أطهرها من دنس كبير، قبل أن أواصل مسيري دون أن يفكر المصفوع في شيء غير السباب من بعيد.. وما أفحش لسانه!...

قلت بعد أن استمتعت مع صديقي شعبان بهذه الحكاية القديمة التي كنت قد نسيتها:

ـ الحق إن عند هذا الوغد محصولا عجيبا من السباب، وقد أسمعني بعضه أمس وهو يهرب من أمامي في الظلام كالكلب المضروب النابح..

وسأل الدكتور عند ذاك إن كانت زوجة الوغد قد لحقت به، فأبلغته أن جليلة رأت أن تحجز المرأة عندها أياما حتى تتكشف الأمور..

ـ وتصور أنها اكتشفت في دولابه كيسا منتفخا من الجلد ووجدت فيه أكثر من ألف جنيه!

ـ هذه بضاعتها ردت إليها!

وشاعت في وجه المعلم ابتسامة وهو يقول لي:

ـ الله قادر على أن يقبل توبتها، فإنها تابت على يد شيخ صالح!

إلى أي حد يقرأ في نفسي ويستشف أغواري هذا الإنسان الوديع، الذي ظهر فجأة وبعد غيبة لتقول لي ابتساماته المطمئنة إن في قلبه فرحا بصراط التوبة الذي تمشي عليه أرملة هارون منجذبة إلى طريقي ومنصهرة في عالمي، ولتحدثني كلماته بأنه يعرف أني عشت في ليلتي لحظة صدق مع نفسي كانت مخاضا ليومي الجديد وشعارا لطريقي المديد المنفسح على آفاق المستقبل، وكيف أوتي على علمه الدنيوي القليل هذه القدرة على أن يودع الكلمات القليلة كل هذا الزاد من المعاني؟

ومن تحت سور الشرفة جاءنا في تلك اللحظة صوت مطمئن يترنم في صفاء أرغولي وهو يدنو من السلم:

«من غير ما تبقى جميل وشريف في أفعالك»

«إش تسوى... حفنة تراب في الأرض يا آدم!»

الفصل السادس عشر

وما أن ظهر عم آدم في الشرفة بجلبابه المترب الواسع الذي تمسكه حول وسطه شبكة من شباك الصيد القديمة معقودة في حزام عريض، حتى نهض إليه الدكتور فصافحه في شوق قائلا له إن به ظمأ إلى مواويله، أما المعلم أبو العهد فقد احتواه في صدره وضمه ضمة قوية:

ـ يا جميل يا صاحب الجميل!

وظهرت بقايا الأسنان القليلة في فم آدم وهو يضحك كما لو كانت آثار معركة طويلة طاحنة في مغارة:

ـ الأستاذ حسن يترك مواويلي الآن ويذهب ليغني في الخص مع الواد مندور!

قلت لراعي الورد في جنتنا الصغيرة:

ـ ليلة الأمس يا عم آدم كانت الفاتحة، والليلة نذبح شاة صغيرة ونشويها بالعراء وننصب السامر ويغني معنا الدكتور والمعلم إلى ما بعد الفجر...

فقال أبو العهد وهو على عادته معي يغرق نظرته في نظرتي:

ـ ليس عندي عبادة أكرم من هذا الذي تدعوني إليه، فهو عندي العيد الكبير، لكن بيننا وبين الليل مسافة، فلأشمر عن ساعدي وأعمل مع أخي آدم في البستان حتى تغرب الشمس...

قال شعبان وهو ينظر في ساعته:

ـ ونخطف رجلنا أنا وأنت لنهنئ الست جليلة بخلاصها من القفا الطويل ونبارك لها، وليطمئن قلبي على صحة زهرتها الرقيقة... قالها وغاصت نظرته هو الآخر في أعماقي برفق الحب وانسجامه ودفئه: فأخذ آدم بذراع المعلم وهو يقول مؤمنا:

ـ واجب!...

وشمر أبو العهد عن ساعده وهو ينطلق خفيفا:

ـ حق!...

واحتوانا الصمت في السيارة وهي تتجه بنا على مهل في اتجاه السكة الزراعية قبل أن يسألني من وراء عجلة القيادة وهو يتفادى سربا من البط تهش عليه بالعصا صبية مذعورة:

ـ كيف حال صفاء الآن؟

ـ لم أرها منذ أيام، لكنها إن شئت أن تعرف ترتل الآن بعض ترانيم طاغور وأشعار رابعة العدوية وتعرف تولستوي وغاندي وسيد درويش بل وبتهوفن أيضا يا أستاذ... أليس معنى هذا أن صحتها تحسنت؟

ـ ما أجمل هذا حقا... ألا تشعر أنها تريد أن تروي لها بنفسك حادث الجبانة؟

ـ أشعر أن لها عندي كلاما أهم من هذا وأخطر... فسكت لحظة أشعل خلالها سيجارة قبل أن يسألني:

ـ متى تتزوجها؟

ـ عندما أنظر في وجه أمها فلا أراه سوقيا ولا رخيصا!

ـ وما معنى ظهور وجه جليلة في صورة هنائك وما هو إلا ظل من ظلال الصورة... حسبك الطهر في وجه صفاء وفي نفسها... إن كل ما فيها يبتسم في طهر، حتى يدها!... تزوجها... تزوجها في فرح كبير... خيل ترقص على الطبل البلدي ومنشدون وحلقات ذكر ومواويل، ثم نطاردك كلنا عندما تخطفها آخر الليل على حصانك فلا نلحق بكما، لأنكما تكونان ساعتها في الأعالي عند النجوم!...

ـ اسكت! اسكت يا شعبان! لا يزال ظل مصطفى يرقص على ستار جليلة في ضوء شمعة!

ـ يا رجل! جليلة الآن في حماك وطوع بنانك، ولقد صرعت الأصل فما أيسر أن تطرد الظلال... اسكت أنت، وتزوج وأنت ساكت!..

واحتوانا الصمت مرة أخرى حتى ظهر لنا عن بعد بيت المفتش، وابتسم صديقي فابتسمت، وما أن عبرنا السكة الضيقة التي تحاذي البيت وتنكشف منها قمة الأرجوحة في ركن حديقته حتى التحم صوتانا فجأة بانبعاث صبياني واحد في ترنيمة التحية:

«عيال الناس في سنة أولى»

«يخش لهم جاد المولى»

«يارب ارحم! يارب استر!»

«جاد المولى! جاد المولى»

وتهادت السيارة بعد قليل في ظل صف رشيق من أشجار الجزورينا الشامخة، وها نحن مرة أخرى يا جميزة هارون وهأنت أيتها البوابة الدميمة التي ينبغي أن تهدم ويعاد تصميمها لتبنيها يد المعلم أبو العهد، ولسوف نصفق بأيدينا عندك فلا يظهر لنا في هذه المرة قفا مصطفى ولا عينه الصفراء ولا نظرته الخائنة...

والسلام عليك أيتها الخادمة الصغيرة التي تقودنا إلى الداخل في أدب...

وتحية للعجرفة والمنشة والكرش، تحية يا هارون في إطارك المذهب المتعالي في صدر غرفة الاستقبال وألف رحمة!

أما شعبان فوقف أمام الصورة ويداه في خاصرتيه ثم لم يملك أن هتف:

ـ انظر يا سيدي هارون... إن «المخبول» اليوم هو صراط جليلة وحبيب صفاء!

ثم صاح فجأة في عجب عندما وجد على رخامة المنضدة القديمة التي تعتليها الصورة الضخمة كتابا مفتوحا:

ـ كتاب! معك يا هارون في مكان واحد!...

وتناولت الكتاب من يده وقد عرفته، وعرفت من الصفحة المفتوحة أن حبيبتي كانت تقرأ كلمات طاغور التي قرأتها أنا قبل أن أراها أول مرة، عند البوابة التي اجتزناها منذ قليل، وأنا جالس فوق الحجر الكبير الذي سرقه أبوها يوما ما من مهمات مصلحة الطرق والكباري:

«على الإنسان أن يعرف أنه إنما يقود نفسه للجنون ويمزقها ويأكل من لحمه ودمه عندما يحجب نفسه عن لمسة الأبدية المحببة المطهرة ويعود إلى وجوده المحدود ملتمسا منه الغذاء والدواء، لأنه عند ذاك يحاول في التعبير عن نفسه أن يدهش غيره لا أن يجذبه، ويفقد النظرة الكاملة إلى الإنسان الذي هو بسيط وعظيم في آن واحد.. وعندما لا يمتد شعور الإنسان إلا في حدود حاجات نفسه القريبة فإن الجذور العميقة في طبيعته لا تجد لها غذاء وتبلغ روحه حافة الإمحال والجوع، وهو عند ذاك يفقد حكمته الباطنية ويقيس نفسه بحجمه لا بالحلقة الحيوية التي تربطه بالمصير، بلا نهائية الكمال الكوني بالنغم الفياض الراقص في الوجود...»

الفصل السابع عشر

كانت نافذة المرسم المفتوحة عندما انتهيت من لوحة «البناء الطيب» تحمل إلينا النسمات الباردة الخفيفة التي ينتعش بها مشرق النهار في الأيام الأولى من أكتوبر وتنتشي برعدتها الكائنات النباتية التي تنفض أوراقها قطرات الندى، فنهض المعلم أبو العهد من جلسته التي لم تكد تتغير منذ ساعتين وتمطى عند النافذة في سرور حاجبا عني قطاعا من منظر الحقول الصاحية للنهار الجديد.. ثم دنا من اللوحة دون أن يتكلم ووقف أمامها متأملا الوجه الذي يملأ مساحتها الكبيرة بالصفاء والطمأنينة وتضيء عيناه بنور داخلي، وطالت وقفته الصامتة الراضية قبل أن يقول:

ـ الفن من جمال ربنا..

ـ هل تريد أن تأخذها يا معلم؟

ـ إلى أين!.. مكانها هنا يا أستاذ حسن.. عندك..

ـ ألا تريدها أمامك دائما على حائط بيتك؟

ـ لست أنت من يمنعني من الارتواء من هاتين العينين كلما هزني الشوق إليهما.. ولسوف يهزني الشوق!

ـ إنهما عيناك يا معلم، والصفاء الذي ينيرهما هو كنزك. وما كنت أنا إلا المرآة.

وتركته أمام صورته وقصدت النافذة فأشرفت من ارتفاعها على الأرض المترامية إلى الأفق وهي تصلي تحت أشعة الشمس الأولى صلاة الصبح الشاكرة، وكأن كل ما عليها من حياة يتوثب بسيال من حيوية طروب، ومن بعيد تتعالى من ركن حديقة البرتقال خيوط متقاربة من دخان يعلن أن مندور يوقد راكية نار عند خصه ليستفتح بكوب الشاي، ووراء الدخان بمسافة قليلة هضبة الجميز العتيقة صامدة بكثافتها المعتمة للضوء. وفوق قنطرة الترعة القريبة فلاحتان تحملان فوق رأسيهما بلاصين فارغين، وهما مشتبكتان في ثرثرة ماجنة. لابد أن عند إحداهما كلاما عن زوجها وحكاية عن ليلتها. وإذا بخاطر في نفسي يشغلها: لماذا لا يتزوج أبو العهد وهو داخل على الأربعين؟

وفي تلك اللحظة جاءني صوته من ورائي:

هل تأذن في أن أرى بعض هذه الصور الكثيرة؟

لماذا لا يتزوج صديقي الطيب؟ كان السؤال معنا وأنا أريه لوحة بعد أخرى وأكلمه عن كل واحدة منها، وعندما واجهته وهيبة نائمة في النور الخافت داخل إطارها العريض طافت نظرته بالجسم المستلقي في إعياء، ثم تشبثت بالوجه الناطق بالسأم الشاكي كما لو كانت قسماته أنات معذبة، ونطق وجهه بالكلمة قبل أن يلفظها لسانه:

ـ امرأة مسكينة!

ـ إنها تعيش هنا في بيتي منذ أسابيع... ووراءها شقاء طويل..

ـ وأمامها؟

قالها وهو يدني وجهه من وجهها الذي تصرخ فيه تعاسات وعذابات، فقلت له بعد سكتة قصيرة:

ـ حياتها لم تكن سهلة.

وما أن قلتها حتى شاعت في نفسي ابتسامة مرة، فقد ذكرت في الحال أن هذه كانت كلمة جليلة عندما بدأت تكلمني عن نفسها متلمسة سبيلها إلى نفسي... وما صاغت جليلة زمنها ولا صنعت وهيبة.. أجل!.. حياة وهيبة أيضا لم تكن سهلة ولا حياة ملايين المجهولين والمجهولات.. الحياة صعبة. الإنسان قدماه في التراب وقامته منتصبة وأمامه الثعبان وفي يده البلطة وفي قلبه الصراع، والنهاية مجهولة حتى آخر لحظة... وبعض الناس تجبره ظروفه على أن يخوض المعركة من بدايتها إلى نهايتها وليس في يده بلطة ولا عصا، والبعض تحتضنه الأفعى فينام في حضنها منكسرا مستدفئا بهزيمته.

ولم ير أبو العهد بعد وهيبة شيئا، ثم هبطنا من المرسم لتتلقانا أمنا سعيدة بتحية الصباح، وتوضأ أبو العهد وانتحى ركنا من البهو ليصلي..

وطلبت من سعيدة أن تلحقنا بالإفطار في خص مندور، ثم سألتها:

ـ أين الغجرية؟ من أيام لم أر وجهها..

لها الآن أكثر من عشرة أيام في حال لا ينقضي منها عجبي.. أصحو في الليل على صوت بكائها، فتوصيني أن لا أحدثك بدموعها وتقول إنها تتمنى أن تنسى أنت وجودها تحت سقف بيتك.

ـ الحق أني نسيتها.

ـ إنها الآن ما أن تسمع صوتك أو وقع خطاك حتى تهرب كقطة الغيط المستوحشة.. ومنذ قليل كانت تسألني عن عدد الركعات في كل صلاة..

ـ وماذا قلت لها يا أمي سعيدة؟

قلت لها إن الأستاذ حسن نفسه لا يصلي فلم تصدقني، فأحلتها على أبو العهد!

وكان المعلم قد فرغ من صلاته فسألها وهو مقبل علينا:

ـ من؟

قالت:

ـ المسكينة التائهة في الدنيا!

نظر أبو العهد في عيني، فقلت لسعيدة:

ـ لتحمل هي صينية الإفطار إلى الخص... ولا تنسى الأكواب للشاي وسلطانية العسل!

الفصل الثامن عشر

وكانت نار مندور عندما بلغنا ركنه اللطيف محتضنة براد الشاي، وعلى الأرض بالقرب من الراكية نوى بلح. وأشرقت أسارير الحارس وهو يفرش لنا حصيرته ثم جلس أمامنا ينكش في الحطب المتوقد ويجمعه حول بطن البراد الكبير الأسود، قبل أن يقول:

ـ كنا نود لو حجزنا الدكتور معنا أياما.

وكان الحب خالصا في صوته وهو يقول كلمته معبرا بها عن شعور الجميع فلقد رأى صديقنا الطبيب في سهرتنا التي انتهت بسفره منذ ساعات قليلة وهو يقلب الشاة على السفود فوق جمرات النار، وأستمع إلى حكاياته العجيبة عن زبائن عيادته وعن علاقة المرض بالنفس وبالوهم وبالإرادة وشاهده وهو يحيي السمر ويغني في انسجام كلما مال عم آدم إلى الراحة بين موال وموال، ثم تفيض به النشوة للأنس الصافي بين الأحبة فيرقص حول النار في انجذاب جميل، وما أن تأخذه جلالة الرقص حتى يشدنا كلنا إلى خفق الإيقاع السحري فأنتفض له كالشرارة وينتفض أبو العهد صائحا صيحته التي ارتعشت لها النجوم: «حي!» وإذا هو راقص فاتن خلاب تتحول مادة اللحم والعظم في كيانه إلى جمل روحية موقعة، وما أن ينهض آدم وطاهر ومندور إلى الدعوة في اندماج مسحور حتى تتكون حول الذبيحة التي تنضجها نار العراء حلقة مشعشعة لا تدري متى بدأت تختلج مع الإيقاع ولا كيف اندمجت في كهربائه المقدسة، وما ندري من المعطي ومن الآخذ وما المكان وما الزمان، إن هي إلا خفقات روح واحد كبير في ذروة انفلاته من سجن اللحم والدم، تحت نجوم الليل التي كانت تتلاحم منسجمة هي الأخرى معنا في فيض الوجود الراقص كأنها في علاها تومض بالبسمات..

وشربنا شاي مندور المر ونحن نتكلم عن ليلتنا الجميلة، إلى أن قال مندور:

ـ أنا رقصت في الحقيقة حتى خلت أني لم أعد ألمس الأرض! فقال أبو العهد وهو يضحك في وجهي مستبشرا:

ـ والأستاذ حسن أخذني معه إلى النجوم فخاصرناها!

وسعل مندور بعد قليل وقال منتهزا وجود أبو العهد ليعبر أمامي عن قلقه المكتوم:

شيء واحد كان يعكر صفوي... كنت طوال السهرة أخشى أن نسمع فجأة رصاصة أو رصاصتين...

فسألته وقد تبينت اتجاه فكره:

ـ مصطفى؟ ثق أنه الآن يرتعد في مخبئه في أحد أزقة طنطا، إن لم يكن زيادة في الحرص قد لاذ بأحد زملائه القدامى في عالم الجريمة.. في البحيرة مثلا.. إنه يعيش الآن في ظل المشنقة.. يعيش في الخوف.. واليد الخائفة يا مندور لا تبطش.. إنها ترتعد..

وفكر الفلاح الشاب في كلامي قبل أن يسأل:

ـ ألا يستطيع أن يقول لو وقع في يد الحكومة إنه لم يعترف لك أنه قاتل هارون؟

عند ذلك يتكلم من شاهد الجريمة ويروي للحكومة الحادث كما وقع.. هناك شاهدة؟

ـ موجودة؟

ـ تحت سقفنا يا رجل!

وكانت صينية الإفطار عندما قلت هذا قد ظهرت محمولة على رأس وهيبة التي تعثرت خطاها أمام نظرتي كما لو كان ما تحمل فوق رأسها خطايا الوجود كلها، لا الخبز والجبن والبيض المسلوق والعسل، وما أن توسطنا الصينية ورفعت يدي الفوطة الناصعة البياض التي كانت تغطيها حتى همت المرأة أن تتراجع فقلت لها في صوت لين:

ـ اجلسي يا وهيبة وكلي معنا لقمة...

واضطرب وجهها وارتعدت شفتها السفلى:

ـ العفو يا سيدي... أنا أكلت مع عم آدم...

ـ آدم يفطر على القهوة السادة وحدها وهي زاده حتى الظهر فلا تكذبي واجلسي بين المعلم ومندور ومدي يدك...

وأفسح لها أبو العهد فجلست متضائلة ورأسها منكس وكأنها تهم بالبكاء ولم تمد يدها حتى زغدها جارها:

ـ كلي يا بنت يا غجرية، وإذا كان عم آدم وحده هو الذي يفتح نفسك فما أسهل أن نزوجكما ونرقص في الفرح!...

كم تغيرت المرأة ذات الذقن الموشوم في الأسابيع القليلة التي عاشتها في ظلنا، ولحظت لأول مرة أنها تلبس ثوبا سابغا تبينت فيه صنعة سعيدة وخلوه من الزخارف الساذجة التي كانت تستهويها، أما شعرها الغزير الذي كان يحلو لها أن تفسح لبعض خصله السوداء اللامعة حتى تنهدل من تحت القمطة فلم يكن يبدو منه شيء ولا حواجب مزججة ولا جفون مكحولة ولا خاتم ولا حلق، لا شيء إلا الوشم الصارخ في ذقنها والانكسار الكامل في شخصها، وها هي تتنحى في حياء بعد أن أكلت لقمتين:

ـ عم آدم سألني إن كان الأستاذ يحب أن يشرب قهوة الصباح هنا أم في كشك اللبلاب؟

فأمسكها أبو العهد من يدها وداعبها:

ـ عم آدم عم آدم!.. أنا غيران يا صبية!...

فارتعدت كما لو كانت يده الرحيمة التي تريد أن تسري عنها وتتألفها قبضة القانون ذاته، فسألها في رفق دون أن يخلي يدها:

ـ رأيت مصطفى وهو يصرع هارون؟

اختلست المرأة من وجهي نظرة، فشجعتها:

ـ تكلمي يا وهيبة، مادمت لا تريدين أن تأكلي...

ـ قلت لك يا سيدي.. طاخ طاخ.. وسقط البغل على الزراعية، ورأيت تابعه يصرخ كما رأيت مصطفى وبندقيته المخروطة في يده وهو يختفي في غيط الذرة.. وكنت في طريقي إلى بيتك مستترة بظلام الليل.. وعلى غير انتظار منا، والطعام في حلوقنا، هزتها دموع تريد أن تكتسح كل ما يغلف شخصها المجهول من أصفاد، فوثبت وثبة حيوان مجلود وانتزعت يدها من يد المعلم في حركة عنيفة:

ـ ربنا يتوب علينا كلنا!

وانطلقت تعدو في اتجاه البيت، فعاد أبو العهد إلى كلمته الصادقة:

ـ امرأة مسكينة!..

وكأنه يقول: أمامها مجهول ووراءها عمر من المهانة والعار والذنوب والرجال واللصوصية والسجون...

وانتهينا من الإفطار في صمت فأشعلت سيجارة وقمنا لنتمشى بين أشجار البرتقال، وبعد قليل سألني صاحبي:

ـ لماذا لا تتزوج يا سيد حسن؟

ـ فابتسمت لوجهه المخلص الطيب:

ـ عندما كنت تتفرج على الصور كنت أيضا أسأل نفسي: لماذا لا يتزوج أبو العهد؟

سكت المعلم لحظة قبل أن يقول في إيجاز:

ـ مادامت العفة في مستطاعي!..

هذا حالي أنا الآخر يا معلم، غرائزي طوع إرادتي، وأنا أقودها ولا تقودني.. لكن مشكلتك في صميمها شيء آخر... ولنتكلم الآن بصراحة أخوين.. أعرف أن في قلبك طمأنينة المؤمن، لكن ما في يدك قليل، والزواج يعني الصبيان والبنات والنفقة والمسئولية... أتعرف بوابة هارون العتيقة والسور العالي الذي يحيط بالبيت وملحقاته؟

ـ أعرفهما منذ كنت طفلا يمر بهما في خوف ورهبة!

كل هذا سيهدم ويزول من الوجود كما زالت رهبة هارون، وستبني أنت للست جليلة سورا جديدا وبوابة حديثة، ويرزقك الله من هذا السبيل نفقة الزواج ومهر العروس... ثم إن مصطفى أيضا قد انحسر ظله، وستسألني السيدة أن أختار لها ناظر زراعة، وإن لها عندي القوي الأمين الذي يلزمها، فانظر كيف يسعدك الآن أن تخطب بنت السلطان!

وتعمدت أن لا أنظر في تلك اللحظة إلى وجهه، وانتظرت صوته حتى جاءني هادئا كجدول خفيف ينساب في رقة:

ـ وهل أعرف أنا كيف أخاطب السلاطين دون أن أغضب السلطنة؟ أتمم جميلك يا سيد الناس واخطبها لي بنفسك موفقا ومباركا..

ـ قل لي إذن إلى أي بنات البلد يهفو قلبك يا معلم؟

ـ أنا؟.. إنما يهفو قلبي إلى نور الله وحده وما عليك إلا أن تختار السلطان، الذي يعجبك وتكلمه!

ووقع بيننا صمت عميق.. وكان صمتي يقول: «أما أنا فإن سلطاني كان بغلا والعمامة السلطانية التي كانت تعتلي هامته سقطت في التراب وداستها حكمة الأيام والليالي! على حين كان صمت أخي الذي يماشيني في ظلال الأشجار العالية يهدر إلى جانبي كهدير أمواج البحر الصاخبة، وما بيني وبين هديره إلا ستار شفاف تومض على جانبيه روحانا، ومضات تتلاقى وتتلامس شراراتها.. وفجأة أمسكت بيده يدي وجاءني صوته في هذه المرة أبيض كدفقة من نور:

ـ إن سلطاني غجري! اكسب فينا ثوابا كبيرا وزوجني من هذه المسكينة!

الفصل التاسع عشر

عند أحد أضلاع الجرن الكبير الذي تشغل مساحته البيضاوية أكثر من نصف فدان نصبنا مصطبة مفروشة بسجادة وعليها عرش من الأزهار يحف بكرسيين جميلين، وعملت عشرات الأيدي طوال النهار في صف مئات الكراسي والدكك الخشبية في صفوف وراء صفوف على هيئة حدوة حصان هائلة تنحصر المصطبة المعطرة عند فتحتها، أما المشاعل الأربعة الضخمة التي وضع تصميمها أحد أبناء القرية من طلبة الجامعة، وأشرف على تنفيذها في دكان منصور النجار سبعة أيام وسبع ليال، فقد رشقناها في أركان الجرن من قبل غروب تلك الليلة من آخر الشهر العربي، ودعونا البعيد والقريب وذبحنا العجل وهيأنا السمر.

وكان مندور قد أصر على أنه يكفيه أن يسمع الغناء من بعيد، وقال إن الاحتياط واجب ولابد أن يظل أحد في جوار البيت، مادامت الليلة تجيئنا مع الرجال والنساء والصغار بجموع من الأغراب والضائعين والمجاذيب وأهل الغيبوبة واللصوص، أما الشيخ علوان العمدة فقد أقبل متقمشا في جلباب بلدي جديد وعلى رأسه الطربوش وفي يده عصا تبرق في مقبضها المكور كهرمانة قرمزية كبيرة، فاستقبلته مرحبا وذاكرا غيبته الطويلة في مصر.

أعيش يا حسن بك يا خويا!.. أشم نفسي كل شهرين أو ثلاثة آخذ لي غطسا في أم الدنيا.. الدنيا حلوة يا حبيبي!

ـ عصا جديدة يا سيد علوان؟

ـ من سيدنا الحسين يا حبيبي.. الكهرمانة وحدها ثمنها جنيه وحياتك! وفيها بركة ابن بنت النبي.. شوف الجمال!

وناولني عصاه فتأملت خشبها المجزع المصقول ومقبضها وخيالي ملتذ بتصور ارتباكه لو أني لجأت إلى طريقته المشهورة فباغته قائلا له: «أعطني هذه العصا الجميلة!..» وليس في القرية من لا يخشى تحية عمدتنا وما أطول من يده إلا لسانه، فهو إن كلم رجلا لم يفته أن يضحكه بقفشة من قفشاته الظريفة ثم يطلب لا محالة شيئا، أي شيء، من الريال إلى طبخة ملوخية، وإن كلم امرأة لم يخرج جسمها سليما من لمسات أصابعه أو وخزات لسانه، أو على الأقل غمزات حاجبيه الكثيفين اللذين لا يتوقفان عن الحركة المعبرة البليغة، كما لو كانت لهما، في كلامه وفي صمته. لغة خاصة..

وقلت للرجل الخمسيني الممتلئ البدن وأنا أرد إليه العصا:

ـ حاجة وجيهة! عيون النسوان تحب كل ما يبرق! فانفجر سروره ورنحته الإشارة الخفيفة:

ـ إلا عيون امرأتي نفيسة!.. ما أن رأتها في يدي وأنا أدخل عليها بعد الغياب الطويل حتى اتهمتني بقلة الدين، وزعمت أني أغطس في مصر لأن لي فيها زوجة أخرى هي التي أهدتني هذه العصا أو على الأقل عشيقة، وتنبأت لي ببيع الأفدنة الستة المتبقية لي من ميراثي، وبطردي نتيجة لذلك من العمدية ضياع مستقبل البنات والأولاد.. شيء يغم النفس!.. ومن آيات وجود الله يا حسن بك أن الذي خلق الحلويات المتوفرة في شوارع مصر ومحلاتها هو خالق نفيسة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!..

كنا نتكلم واندفاعة كبرى من ضمير البلد كله تجيئنا بجموع تحتشد بين حدود المشاعل الأربعة وحول أضوائها التي أحالت الليل إلى لوحة ضخمة مفعمة بالحياة والفرح، وكنت أرد تحيات الناس ثم أعود إلى جليسي لأنخس كبرياءه وأبسط نفسه للسرور.

ـ الذي أعرفه يا سيد علوان أن الرجال هنا نساءهم بالضعف أمام خفة ظلك.

ـ والذي أعرفه أن النساء هنا لسن نساء بالمرة!.. إذا استثنينا طبعا زينب بنت هنداوي وامرأة الشيخ حداية!!

ـ اسمع يا عمدة! أنت متهم أيضا بكثرة المرور أمام بيت الشيخ حداية الذي تدمن التشنيع على طيبته وسذاجته!

وكنت أعلم من قبل أن يرد أني ضربت له على الوتر الحساس:

ـ الحقيقة هي أنه يعطيني دائما الفرصة للضحك على غباوته وعبطه.. شوف حضرتك.. أمس بعد الظهر لمحته وهو يسارع بدخول داره حتى لا يعرض نفسه لتحيتي.. وكنت بالمصادفة مارا على حماري، فماذا فعلت؟.. لم أدق الباب على الشيخ حداية وحرمه.. أبدا.. أنا فاضل ومسلم.. كل مافعلته هو أني ذهبت صباح اليوم إلى المدرسة وقلت له أمام زملائه المدرسين: «والله يا سيدي ما كان في عزمي ولا في نيتي أن أشرب عندك قهوة، لكن هل من المروءة يا جماعة أن يهرب الرجل وراء بابه عند مرور الناس؟ فأدرك أني لمحته أمس وتخبط في كلامه زاعما أنه إنما جرى إلى داخل البيت ليجيء بالمداس لأنه استحيا أن يراه العمدة حافيا، فما أن سمعت كلمة «المداس» حتى صحت في وجهه: «الحمد لله! من مصلحتي يا أستاذ أنك لم تلحقني بالمداس!» ولعبت له حواجبي فانفجرت المدرسة كلها ضاحكة. وعشمي كبير في أن تبلغ القفشة حرمه في البيت فتضحك هي الأخرى منها.. هذه يا محترم هي الضحكة المهمة!.

ثم رمى المصطبة بنظرة خبيثة قبل أن يقول لي وصوته مرتعش بكل ما في كيانه من تفزز جنسي.

ـ وهذه أيضا مهمة!.. أبو العهد صاحبك من الليلة حمله ثقيل!.. كان الله فى عونه!..

كانت وهيبة جميلة في ثوب الزفاف والطرحة البيضاء، وكان وجه أبو العهد مشرقا بالرضى وهو جالس إلى جانبها في جلبابه الأسود الجديد وعمامته المزهرة، وكانا في عالمهما بعيدين كل البعد عن أن تجرحهما مثل كلمات الشيخ علوان أو تبلغ مواطئ أقدامهما، وعلت فجأة في قلب الجمع وبالقرب من مكان الميكروفون أصوات غاضبة وارتفعت الشماريخ، فرقصت حواجب العمدة وانتفض واقفا يحاول أن يتبين مصدر الاشتباك في نواة الحلقة الزائطة.

واندفعت من مكاني لأخوض في تلك الكتلة الهلامية نحو قلبها، وهناك وجدت عم آدم مطبقا بقبضته على رقبة فلاح شاب قوي تريد نبابيت أقاربه وأصدقائه أن تنتصر له ولا يقوى هو على رفع يده على الشيخ الضعيف الذي يحاول أن يخنقه.

وسجلت حواسي وأنا أفصل بين الرجلين ظهور الولد طاهر إلى جانبي وفي يده شمروخ أطول من ضعف طوله، وصوت محمد المبروك شيخ البلد وهو يتوثب حولنا كالنسناس النشيط الأحمق.. ما شاء الله يا ابن شلبية ما شاء الله!.. يعني لولا ستر ربنا كان زمان الدم بحور.. وإدارة ونيابة ووجع دماغ يا حسين يا ابن شلبية!.. والله عال! تبهدل عم آدم الرجل الأمير!.. وفي وجود حسن بك وحضرة العمدة والناس الطيبين!.. وهدأت حركة النبابيت فوق رؤوسنا، لكن الغضب لم يهدأ في وجه عم آدم وانتفاضاته، فسألت الفلاح الذي عرفت من ثرثرة شيخ البلد أن اسمه حسين عن سبب الاشتباك، ولم يجئ الرد على سؤالي منه وحده، فقد اشتركت في الكلام فجأة مجموعة كبيرة من الأصوات وفيضان من كلام جرف هديره كل فرصة للفهم، فوضعت يمناي في ذراع «ابن شلبية» ويسراي في ذراع عم آدم وسقتهما نحو مكاني عند العمدة في موكب صغير يحف به شمروخ طاهر وطرقعة لسان المبروك.. وفي هذه الخطوات القليلة في قلب حدوة الحصان الواسعة التي شخصت من حولها الأبصار وساد الصمت، كان أشد ما يوجع قلب شيخ البلد أن تحدث هذه «المسخرة» في وجود حضرتي، لكنه بعد أن جلست بجوار العمدة وصار سمعه مع أسماعنا قلب الاسطوانة وصار كل همه أن يبدي استنكاره لوقوع الاشتباك في وجود حضرة العمدة.. وتكشف الحوار بعد قليل عن كلمة نابية تفوه بها حسين فكانت الشرارة التي أوقدت غضب عم آدم.. وأدى العمدة واجبه على طريقته فسب الشاب بأقبح من كلمته ورضيت نفس آدم بكلمة مني وعاد إلى قلب الحلقة..

وأمسكت بيد حسين في يدي وقلت له:

ـ اسمع يا حسين! أنت تعرف أبو العهد من زمن طويل، أليس كذلك؟

ـ من صغري.. وعينا الدنيا وفيها أبو العهد.

ـ وهل سمعت عنه في يوم من الأيام أنه ناقص المروءة؟

ـ هناك إجماع على أنه رجل طيب.

ـ هذا غير معقول.. الشرف يا بك فوق الحياة..!

ـ وأنا؟ ألا تعرفني كذلك من صغرك؟

ـ أسمع عنك من بعيد.. كل خير.

ـ في رأيي أن خطأك كبير إذ تقول إن أبو العهد أخذ نفاية الرجال ورضي بها خضوعا لإرادتي وثمنا لخير دنيوي يأتيه عن طريقي.. وأحب أن تقتنع معي بوجهة نظري.. إن الحق لم يكن معك إذ قلت ما قلت، ولا هو مع من يقول مثل كلامك.. اجلس واسمع ما أقول لك بقلبك.

وكان قلب البلد يفيض بالغناء والرقص والسرور وأنا أدخل مع الفلاح الشاب في محاولة شاقة أحسست أني أشبه فيها معولا يهدم بنيانا عتيقا ضخما ليقيم في مكانه عمرانا جديدا ما بين يوم وليلة، ولم أكن أطمع في نجاح عاجل كامل بل كان حسبي أن تتخلخل بعض الجدران القديمة ويظهر ما فيها من خور وتهافت.. ولم يقم حسين من جانبي إلا بعد إن وثقت أنه سينهض إلى عصبته الهازئة وفي نفسه شعور حقيقي بالخجل من نفسه.. وعند ذاك كانت المشاعل متوقدة تشق قلب الظلمة وكان رقص النساء يمتزج برقص الرجال ولعبة العصا تستوفي حظها، وتصاعدت صواريخ الزغاريد كما لو كانت هي الأخرى أنوار مشاعل تقذفها القلوب النسوية الحساسة إلى ما وراء النجوم.. وما سمعت في حياتي كلها كلمات مواويل آدم كما سمعتها، وهو قائم في قلب الفرح كأرغول مارد، ولقد عاشرتني مواويله منذ صباي واستراحت حكمتها البسيطة في أعماق وجداني، ومع السنين صارت بعض مواويله من كلماتي، أما الليلة فقد تفجر قلبه وحده بالكلمات الجميلة فصار يرتجلها، أمام عرش العروسين في يسر مذهل.. لقد صدمته عقلية البيئة التقليدية التي امتنعت بعض قطاعاتها عن تلبية الدعوة إلى زفاف وهيبة حرصا على هيبتها وجاءت قطاعات أخرى منها مدفوعة بالفضول الهازئ والرغبة في إعلان سخريتها من العريس، فلعلع صوته لأول مرة من الميكروفون متغنيا بجمال الحب الكريم ونعيم القلوب الطيبة..

وفجأة أقبل الشيخ المبروك مهرولا وهمس في أذن العمدة، فمال العمدة نحوي وقال في غبطة قائد مستريح في خيمته وقع عدوه فى يد جنوده وهو نائم:

ـ الولد الكلب وقع!.. عامل التليفون تلقى الآن إشارة من المركز بأن مصطفى زين العابدين الشهير بمصطفى العقر وقع في يد ضابط مباحث قسم ثاني طنطا واعترف.. حلال على المشنقة!.. ما رأيك في إعلان هذا الخبر في الحال على الأهالي؟

وقبل أن يسمع مني ردا اندفع نحو الميكروفون وهو يشوح بعصاه الجديدة فتشق له الطريق، على حين كان نسناسنا الصغير المبروك يتوثب حوله وهو يصرخ بصوته الرفيع المشروخ طالبا من الجموع الزائطة الإنصات إلى حضرة العمدة... سكوت!.. سمع!.. الكلام لحضرة العمدة!.. اسمع يا واد إنت وهو... سمع يا بلد غجر!.. وضحك الناس لكن النسناس البشري تنبه إلى أن كلمة غجر التي ألفها منه أهل بلده وتعودوا أن يضحكوا كلما سمعوها منه قد تخدش العروس، فاستدرك في ارتباك.. تفضل يا حضرة العمدة.. والله الغجر أسيادكم.. صلح الميكروفون يا واد يا بتاع الكهرباء لحضرة العمدة.. وأخيرا أمكن الحصول

على قدر نسبي من السكون توضح فيه صوت العمدة وهو يتكلم.. العجل وقع يا أولاد!.. المباحث قفشت مصطفى العقر في طنطا وضربوه بالبلغ.. وعمق السكون مدى لحظة قبل أن ترتفع أصوات عدة من جنبات الحلقة الواسعة.. البركة في السيد حسن.. ربنا يجعل الخير وراءه وقدامه.. وعاد العمدة إلى كرسيه ليميل من جديد إلى أذني.. المرأة رئيفة.. لا تزال في بيت الست جليلة.. ماذا يكون مصيرها؟.. هل هذا ممكن؟.. أن تبقى عندنا؟.. و«نقوط» الست جليلة، هل يقوم مرة أخرى ليعلنه في الميكروفون على الأهالي، حتى يعرفوا أن المعلم العريس قد صار ناظر زراعتها؟.. لم لا؟.. وهذا المنديل الجميل الذي رآني أخرجه من جيبي، ما ثمنه وهل عندي غيره من هذا النوع نفسه؟ هلى أسمح له بأن يأخذه تذكارا لهذه الليلة الجميلة؟!

وبرزت في الساحة عند نكبتي في منديلي النادر. الفرس البيضاء المشهورة «صابحة» وفوقها فارسها شيخ العرب عبد الباري ابن شيخ العرب وهدان، رشيقة، أنثى، حساسة لموسيقى الطبل البلدي كأحسن ما تكون حساسية الراقصة المبدعة في عجبها واختيالها وتطاوسها المنسجم مع دقائق النغم..

وكانت الأبصار متعلقة بفتنتها الراقصة عندما اضطرب أحد أضلاع الحلقة من جهة الشرق واندفع بعض الرجال وسط ضجة مبهمة إلى شق منفذ بين الكراسي ليبرز منه إلى قلب الساحة عملاق جميل منفعل، ذلك حصاني أدهم هزه النغم فاقتحم صفوف الناس بعد أن اقتحم باب حظيرته القريبة، شيء لم يكن في الحسبان، فهللت له الجموع في دهشة، واختطف آدم من يد محترفة دفا كبيرا وانطلق يضرب عليه بأصابع قوية متشنجة وهو يرقص أمام الحصان في انجذاب وصهللة، وطاف أدهم بالسامر في نشوة راقصة حتى حاذاني فخفض أمامي رأسه وهزها في رعدة قبل أن يرفعها في كبرياء ويصهل ثم ينثني في رشاقة الذكر الحساس المنتشي بوجده، فإذا هو وجها لوجه أمام «صابحة» في قلب النور تماما، وإذا بمئات الأكف في حركة تلقائية تصفق على الوحدة لأجمل راقصين في أجمل رقصة، والأنثى تعوم على موج الذكر وهو يطوف بها والانسجام بين حركاتهما يتأكد ويتكامل ويبلغ ذروة رفيعة من التجاوب والاندماج، يتألق عندها آدم ويصفو ويشف وهو يضرب بالدف راقصا حول الفرس والحصان وكأنه لا يمس الأرض بقدميه بل ينأى بهما عنها، خفيفا في الهواء كما لو كان فراشة في نسمة!

وعندما انتصف الليل نفد صبر الشيخ على المأذون فجاءني وعيناه مثقلتان بالنعاس ليقول لي إنه لم ير في حياته مثل هذا الزواج، فلقد سهرنا وغنينا ورقصنا وأكلنا وشربنا الشربات دون أن نكتب الكتاب!

ضحكت، وجذبته من كمه نحو منصة العروسين، وهناك قلت له:

ـ اسمع يا شيخ علي!..

ووضعت يدي على كتف العريس:

ـ يا عريسنا: قل للشيخ على إنك قبلت وهيبة زوجة لك!

فضحك أبو العهد وقال للرجل الذي جحظت عيناه وطار منهما النعاس:

ـ أليس هذا واضحا بعد كل هذه الهيصة؟

فوضعت يدي على كتف العروسة:

ـ يا وهيبة قولي للمأذون إنك قبلت المعلم زوجا لك!

ـ قبلته زوجا لي!

وكانت نظرتها في عيني من خلال غشاوة من دموع فنزلت يدي في هذه المرة على كتف المأذون نفسه:

ـ سمعت؟ وهي ثيب، وأنا وكيلها، والشاهدان أي رجلين تختارهما من هذا الجمع.. ماذا ينقصك؟ قيد البيانات في دفترك وعجل، حتى لا تفوتك الزفة!.. سنرفع المشاعل بأيدينا يا عم الشيخ على ونرفع العروس إلى سرج صابحة والعريس إلى سرج أدهم ونسعى حول القرية في انتظار الفجر!..

لم يفهم الشيخ علي شيئا، لكنه بدأ يفيق من ذهوله واسترد لسانه وقدرته على الحركة عندما استقرت الورقة المالية الكبيرة في راحة يمناه.

ـ بوركت يا سيد حسن، ولا أطفأ لك الله نورا!..

الفصل العشرون

ربطت عنان حصاني في جميزة هارون واجتزت البوابة العتيقة وظلي في ساعة الغروب يسبقني، فبرزت لي من وراء عربة الحنطور المنكفئة على وجهها في ركن الفناء خادمة صغيرة قادتني إلى صالة البيت المفروشة بالكنب، حيث كانت جليلة تنتظرني وأمامها عدة القهوة وفي وجهها البدين المطمئن ابتسامة طيبة.

وما أن مرت لحظات شربنا خلالها القهوة السادة التي تذكرنا دائما بعم آدم، حتى أقبلت صفاء في فستان أسود بسيط وشعرها الطويل مرسل على ظهرها في ضفيرة واحدة فصافحتني في شيء من الارتباك وجلست إلى جانب أمها وهي تسألني في حياء:

ـ هل قهوتنا لذيذة مثل قهوة عم آدم التي أسمع عنها دون أن أذوقها؟

قالت أمها ونظرتها تشملنا في حنان ضاحك:

ـ ليس في الدنيا يا بنتي ألذ من قهوة آدم، وستشربين منها طول عمرك دون أن تسأمي حلاوتها!

وقلت مناجيا صفاء العسل في العينين الجميلتين وما في أعماقهما من نضرة الفرح البكر:

ـ أنت ضيفة عم آدم هذا المساء، وهو ينتظرك بقهوته ومواويله.. وقد أوصاني أن أنتظر الليل قبل أن أخطفك على حصاني!

وكنت قد ناقشت جليلة من يومين في هذه النزهة الليلية ولمست تحرجها وخوفها من ألسنة الناس، فالتفت إليها قبل أن تفتح فمها وقلت لها الكلمة التي أعرف أنها ستسكتها:

ـ ثقي أن الناس بعد أن يشبعوا كلاما عن كل جديد يصدق في النهاية حكمهم، مادام الجديد طيبا..

وألتفت إلى الوجه اللطيف المشرق:

ـ ما رأيك يا صفاء؟

ـ هل لي رأي؟

قالت جليلة وهي تحنو بنظرتها المبتسمة على حيرة ابنتها الساذجة:

ـ مادام يسألك فهو يريد أن يكون لك رأي مع رأيه.

فصفقت بيديها الجميلتين طربا:

ـ ما أجمل أن أركب حصانا في حياتي لأول مرة. ولا أقع

تعالي! إن أدهم سيطير بنا من فرحته، ولن تقعي ويدي في خصرك ولو نشر جناحيه وحلق بنا فوق السحب.. تعالي نعلن للوجود خطبتنا، على طريقتنا..

ـ هل سيرانا الناس على هذا الوضع؟.. ليتني أسمع ما يقولون! ها هي كل الأقنعة تسقط وها هو قلبي ينبض في نور لا ينطفئ أبدا.. ومساء الحب يا صفائي!

بعد اليوم لن تجدي في لوحاتي تلك القطعان من الذئاب الضارية والبغال البليدة والكواسر ذات المناقير المعقوفة والديدان عاشقة الوحل والأفاعي ذات الرءوس البشرية، بل قلوبا كالنجوم المضيئة تعرض دفئها بعطاء كامل، وعندما تقرئين كراسة يومياتي ستعرفين عني ما بقي لك أن تعرفيه عن سري، وتعيشين مع السطور في الضنى الأليم الذي عانته أعوامي اليابسة قبل أن أهتدي إلى قضيتي الخاصة، الحقيقة، العليا، وستجدين نورا يولد وطريقا ينشق في قلب صخرة..

وتطاوس أدهم واختال عندما استراحت الجميلة أمامي على السرج وفكت ضفيرتها، ورأينا في طريقنا شهقات دهشة تتحجر في وجوه نساء ورجال يجمدون عند مرورنا كالتماثيل، والتقطنا مع ذلك ابتسامات مشاركة ودعوات طاهرة..

وعندما بلغنا مهبط سكة أولاد مرعي لويت عنان الحصان في اتجاه القبة المظلمة التي تكونها أغصان الجميز العملاقة كما لو كانت قبة معبد مهجورة بنته مردة الأزمنة الغابرة..

قالت صفاء:

ـ إلى أين تذهب بي؟

وأخذت دائرة الضوء الخفيف الصادر من مصباح اليد الكهربائي الصغير تنتقل في أرجاء الجبانة المهجورة، فضغطت أصابع صفاء على يدي في شيء من الروع:

ـ مكان مخيف!.. ظلام كبير.. وأنفاس راكدة!

واقتحم الحصان القبة كما لو كان يشق الأرض العامرة بعظام الموتى وأنا أقول لحبيبتي:

ـ إن الموت لا يخيف.. حتى القبر يمكن أن ننظر إليه ببرود.. من الخارج ومن الداخل.. ولقد فرضت هذه التجربة على نفسي عندما ماتت فاطمة ونزلت إلى قبرها وتأملته مليا قبل أن أتلقى جثتها بيدي وأوسدها التراب.. الذي يخيف حقا هو الحياة إذا شحب القلب وانهار الوجدان.. وليس في الدنيا ما يخيف قدر قلب مظلم..

ومرت لحظة صمت عميقة قبل أن تعود إلى الكلام:

ـ هل في هذا المكان ثعابين؟ إنني أسمع منذ طفولتي ما يرويه الناس عن ثعابين معمرة مديدة الطول تسعى في الليل في هذا المكان المهجور ولها أجراس تدق، وعند الصباح يجد الناس في الأرض كما لو كانت بطون زوارق ضخمة جرتها الأيدي على التراب الناعم.. هل هذا صحيح؟..

ـ لقد صرعت واحدا منها يدي منذ عهد قريب.

ـ ولم تخف؟ إن الثعابين فظيعة..

كنت خائفا حتى هزمته، فلما غلبته قتلت بانتصاري عليه كل خوف في قلبي.. إن الفظيع هو الخوف من الثعبان.

ضغطت اليد الرقيقة مرة أخرى على يدي وقالت في عتاب راض وقد سكن عنها الروع.

ـ تكلمني عن الجرم وأنا أسأل عن الثعابين الحقيقية!

وسكتت لحظة تستبطن مشاعرها قبل أن يلين صوتها:

ـ هنا انتزعت السم من ناب مصطفى؟.. إني الآن لم أعد خائفة. ما دمت معك!

وخرجنا من تلك الظلمة فتدفقنا كالنشيد الحي في اتجاه بيتي، والنجوم قريبة والليل جميل.. أتسمعني يا أدهم؟ ما دمت معها فلن يوصد بابي في وجه الحياة ولن أتقوقع في درع من انطوائي فلا أرى من الحياة إلا ما يراه متفرج من سكان كوكب آخر.. لقد تحطمت القوقعة وهذه الأرض أرضي أنا ولابد أن تشرق على أرجائها سعادة الإنسان الشريف الجميل.. أتفهم هذا يا أدهم كما تفهمه النجوم؟

وتحت شجرة التوت القريبة من شط الترعة عند باب بيتي تناولت قبضة من تراب الأرض في يدي وشممتها فتفتح لها قلبي كحضن دافئ، والكروان يعبر السماء مرسلا دعاءه الآمن، لا يخشى صقرا يهوي على عينه فيفقأها وينقض بمنقاره الناهش على حنجرته الطروب، والنغم الفياض في الوجود يغني في قلبي، والإنسان الحقيقي الذي يحمل اسمي يخرج من متاهات العمر صادقا وصلبا ونقيا.

وأطلت سعيدة من الشرفة فنورت بسمتها الراضية آفاقنا وعطرتها، وإن هي إلا لحظة حتى كان قبس آخر من الكهرباء المقدسة في الكون يأتينا من الشرفة بموسيقى متدفقة بالفرح اللطيف والإيمان الصافي، في إيقاعها نبض القلب وجمال الحرية ونور الخير ووقع خطى في طريق مفتوح.. وصمتنا كلام تومض فيه روحانا ومضات متلاقية ينسجم فيها فيضنا الروحاني، ثم يمتلئ الليل بهمسات رقيقة من الروح للطيف الذي يصحبني:

ـ أحب الدنيا! أحبها!

وما أعذب هذا الهمس السعيد الذي يسري في عروق الحياة كلها كما لو كانت الكلمات المهموسة هي دم الوجود ومادته.

كانت تولد الحياة ثانية، هي التي عاشت صباها في مثل الصقيع الموحش الذي انتشر على مسافات كاملة من عمري أنا الآخر وكساها غربة وضبابا، في برج العزلة، حيث تختلس الأحلام أقنعة الواقع وترتسم خيالات الهواجس على الجدران الباردة الصماء، هذا خيال أبيها المتعاظم رافعا لواء الأنانية المسعورة، وذاك خيال أمها الشنيع عاريا في العار حتى الرقبة، ومن بعيد شبح خيال صغير كأن وجوده وهم من الأوهام، الأخ الغائب النائي، محمد الذي وجدها متشنجة في حجرتها في يوم نشر سواده من أعماق طفولتها كملاءة سوداء تغطي طريق الحياة كله، يوم دفعت يدها الغضة بابا فرأت مصطفى سيدا مطاعا على عرش الأمومة ـ وزلزلها ما رأت كما لو كانت قد غاصت فجأة في وحل عطن.

ـ عندما ترى محمد لن تملك إلا أن تحبه.. لم يتركني يومها حتى أفقت وهدأت.. وكانت الصدمة أقوى من أن أحتملها وحدي، فلم أرحمه. وكان عمرنا معا عشرين سنة!.. ويا للولد الصغير الهائج قال إنه سيأخذ البندقية في الحال ويقتل مصطفى.. ثم بكى معي ولم يقتل. دخلنا في الصمت ذليلين.. وبعد ثماني سنوات جاءت لحظة سفره إلى ألمانيا، فهمس في أذني وهو يحتضنني بكلماته التي لن أنساها.. لقد اختار الرحيل عندما تهيأت فرصته حتى لا يقتل أمه.. وهذه هي كل طفولتنا.. أما الآن فعندما يعود محمد يجد الدنيا أجمل وأطيب.

مجهول جديد يحتضنه قلبي من قبل أن أراه، كما لو كان ابني أنا لا ابن هارون، وسيأتي يوم يجلس فيه معي، كما تجلس أخته الآن تحت هذه التوتة ونتكلم عن أمه... ولن تكون في يده عند ذاك بندقية... ولسوف يحتضن أولادك يا حبيبتي ويقبل في وجناتهم الغضة تفتح الرجاء ونضرة الغد فينحني على توبة أمه مطمئن القلب، ومن بطن الظلام الذي غشي بداية الطريق نخرج كلنا للنور بكلمة السر التي انتزعناها من عذابات التجربة وكتبناها بالدم على علامات الطريق، وقلوبنا أحضان لا أقفاص اتهام..

وأخذت يدها في يدي وعبرنا الجسر ومشينا مرة أخرى في الليل كمصباحين، والسماء قريبة والنجوم تتلألأ في شعر حبيبتي.. وقالت عندما طوقت يدي كتفها:

ـ زرت وهيبة بعد غروب أمس في بيتها.. ولم يكن أبو العهد موجودا.. وسرني أن أجد لوحة «البناء الطيب» معلقة في استقبال الداخل.. وابتسمت وهيبة عندما رأت وقفتي عند الصورة وقالت لي في حياء: «هدية الأستاذ في الصباحية».. وعندما قلت لها إن أمي تفكر في بناء بيت جديد لهما في العزبة قالت بنفس الابتسامة المطمئنة: «أنا والست جليلة حبيبتان!».. إنها امرأة سعيدة!..

واحتوانا الصمت مرة أخرى وانتظمت خطواتنا على إيقاع لغته الأبدية..

والنقلة من ذكر الأخ البعيد إلى هناء وهيبة ورجلها أنضجت في خيالنا دون أن نتكلم، مشاعل زفافنا التي فرشت أنوارها أمامنا على امتداد الجسر الطويل الذي يبدو كما لو كان بلا نهاية..

والنجوم عند ذاك تخفق ومضاتها فوق رأسينا كأنها دفوف عرس كوني، وما أن التقت بين عيوننا ومضة خفاقة حتى اتحدنا في عناق اعتصر من قلبينا كل المرارات وذوبها في رحيق من هناء فاضت نعمته على كل ما حولنا من وجود، ومن بعد ذلك العناق ما عادت هي ضائعة في الدنيا ولا عدت أنا جزيرة مستوحدة تعول في وحشتها زوابع اليأس ولا يبلغ أسنة الصخور في شاطئها الوعر شراع...

والدنيا سلام، والطريق طويل...

جدول المحتويات

الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر
الفصل الثالث عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الخامس عشر
الفصل السادس عشر
الفصل السابع عشر
الفصل الثامن عشر
الفصل التاسع عشر
الفصل العشرون